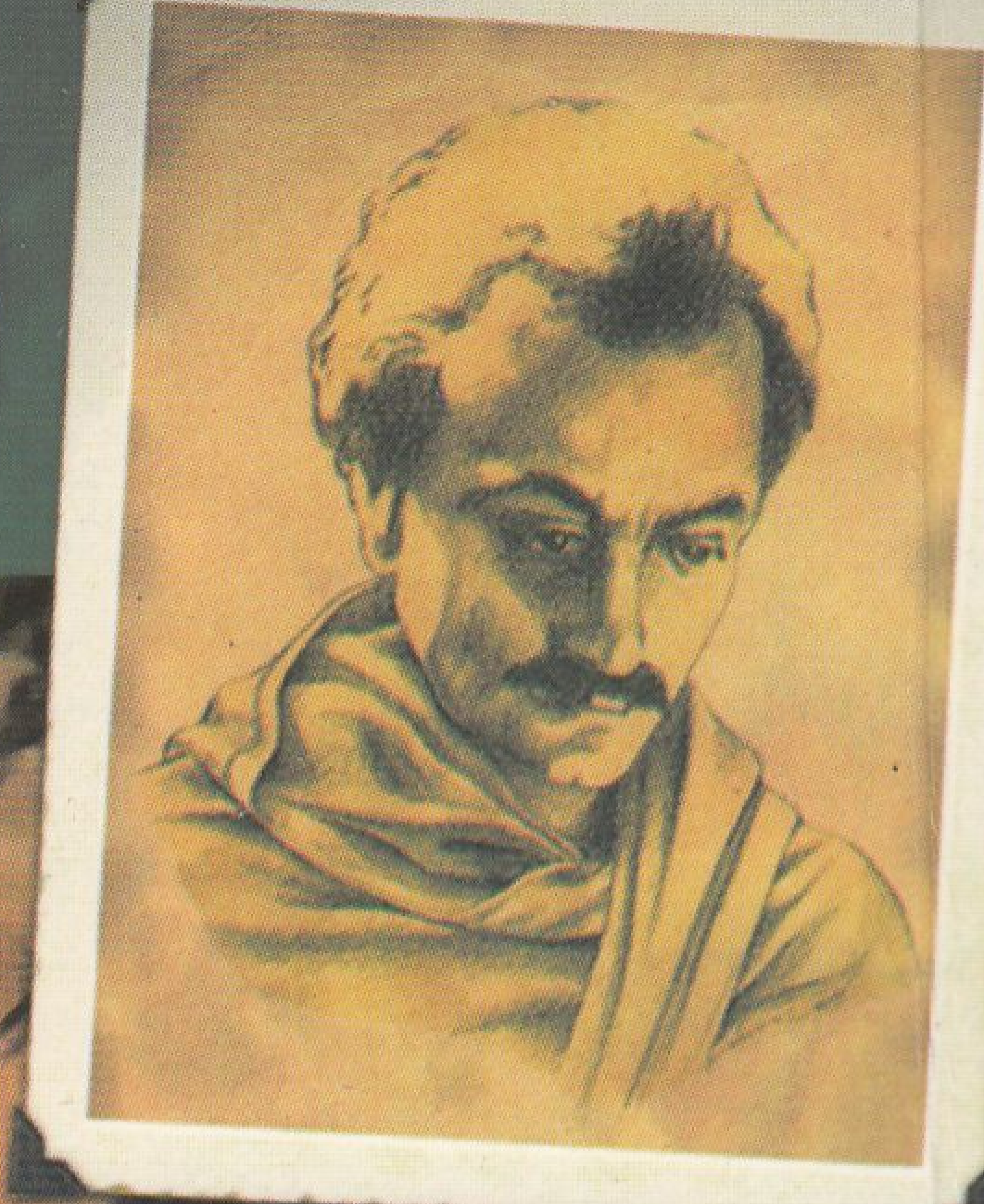
جبران خليل جبران

سلسلة إحياء التراث العربي

١٢

الأعمال الكاملة

التائه



راجعه وضبط مدخله

إبراهيم صقر



مكتبة مصر

التـــــائه

سلسلة إحياء التراث العربي

جبران خليل جبران



التائه

تقديم

كرم الدكروري

راجعه وضبط مدخله

أ/ إبراهيم محمد صقر

الناشر

دار العلم والمعرفة

اسم الكتاب : التـــائـــه

تـأليف : جبران خليل جبران

القطـــع : ١٤ × ٢٠

عدد الصفحات : ١٢٨ صفحة

سنة الطبع : ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م (طبعة جديدة منقحة)

الناشـــر : دار العلم والمعرفة

طباعـــة : دار مصر للطباعة - القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية - مصر
٢٠١٠/٢٢١٥٩
الترقيم الدولي: 977-11-1624-2

٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش حسنى مبارك
زهراء مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١٢٢٣٨٨٨٩٣٠ - ٠١١٢٣٣٣١٢٣٨
E-mail : almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com

عبلين - الجليل - فلسطين
جوال: ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٠٠٩٧٢)
٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦ (٠٠٩٧٢)
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٠٠٩٧٢)



تقـــديم

رفَض المطارنْة الاشتراكَ في مراسِم استقبَالِ جُثمان جُبران خليـل جبران، في عام ١٩٣١م لُيدفنَ -بِنَاء عـلَى وَصـيّته- في بلـدة بـشرّي شَمال لُبنان. بَعد نَقل جُثمانـه عَـبْر البحـرِ، مِـن أمريكَـا، لأَنّـه «كَـافرٌ وُمهرْطِق»، بِزَعم هُجُومه علَى الكهنة.

وقبلَها رَفـضَ كـاهنُ الكنيـسةِ المارُونيّـةِ في نيويـورك أنْ يُعطـيَ تصريحًا لِكَاهِن الكَنيـسةِ المارُونيّـة في بوسـطن بالـصَّلاة عـلى جُـثمانِ جُبران لأنَّه -أي الكـاهنُ- زَار جُـبران في المُستـشفى، «وعـرفَ مِـن الراهبةِ أنه رفضَ الاعترافَ بأنّه كَاثوليكيّ».

خشِيت فَرنسا التي كَانت تُـسيطرُ عَـلى مقَاليـدِ لُبنَـان أنْ يَـضعَها رِجالُ الدينِ المَسيحيّ في حَرَج بَـالغ أَمَـامَ العَـالم بعَـدَم الـصّلاة عَـلى جُثمان الفَيلسوفِ والأَديبِ، والرسَّام الـذي بَهَـرَتْ كِتَاباتُـه الغَـربَ، واعتبرتْه جَريدةُ «النيُويورك هيرالد»:

«نَابِغة الملاَيينِ الذينَ يتكلَّمون العَربيَّة في الشَرق».

تدخّلَ سِكرتيرُ المطبُوعاتِ التَابعُ للمندوبِ الفَرنـسيّ، بِمُـساعدةِ

آخرينَ وشكّلوا وفْدًا وذَهبوا إلى مقرّ البَطريركِ المَارونيّ، إلياس الحُويك، لإقناعِه بِالعُدولِ عَن مُوقفِه، واستَعانَ أَحدُ المطَارنةِ بِكلماتٍ لجُبرانَ ليثبتَ بها صِحّة مَوقفِهم الرَّافِض له تقول:

«في لُبنان، ذلك الجبل الغنيّ بِنور الشمسِ، الفَقيرُ إلى نُور المعْرفَة، قد اتَّحدَ الشَريفُ -يَقصِدُ الإقطاعيّ- والكَاهنُ على إبَادةِ الفَلّاح المسكين، الذي يَأكلُ خبزَه بِعرق جَبينهِ، كيما يَحمِي جَسدَه مِن سَيفِ الأَولِ، ويَحمِي روحَه مِن لعْنَة الثّانِي».

وتَابعَ المطَارنةُ: هَل يُعقلُ أن نُكرمَ ونستقبلَ مَن له هذا الرّأي في الكَهنة؟

فأجَابَ أحدُ أعْضَاءِ الوفد المُدافع عن جُبران:

«إنّ كُتبه تُقرأ في كَنائسِ أمرِيكا، فَهل يُعقل أن يكونَ كَافِرًا مَن يَقولُ مُخاطبًا السيدَ المسِيحَ في كِتَابه «يسوع ابن الإنسان»:

«وأنتَ أيها الجبّارُ المصلوبُ، النَاظرُ مِن أَعَالي الجلْجلة إلى مُواكبِ الأَجيالِ، السَامعُ ضَجيجَ الأُممِ الفَاهمُ أَحلامَ الأَبديّةِ... أنتَ عَلى خَشَبة الصّليب المضرّجَة بِالدّمَاء، أَكثرُ جَلالاً ومهابةً مِن أَلْفِ مِلِك علىَ ألفِ عَرْش، في أَلْفِ مملكة... بلْ أنتَ بَين النزعِ

والموتِ، أشدُ هَؤلاءِ قوّةً وبَطشًا مِن أَلفِ قَائدٍ وأَلفِ جَيش، وألف معرَكة... أَنتَ بِكآبتِك أَجملُ مِن الرّبيع بِأزهَاره، بَلْ أنتَ بين الجَلّادِين أكثرُ حُريةً مِن نُورِ الشَمسِ.. إنّ إِكليلَ الشّوكِ عَلى رأَسِكَ، هوَ أجلّ وأجملُ مِن تَاج بهرام، والمسمارُ في كفّك أثمَنُ مِن صَولجان المشترَى، وقطراتُ الدّماءِ على قَدَميك أسْنى لمعانًا مِن قَلائِدِ عشتروت».

تَأثّر البَطريركُ وبَكى. وقَالَ آمرًا الكَهنة: «انْزلوا إلىَ بَيروت، واستقبلوا جُثمان جُبران، فهو أكثرُ تَدّينًا مِنّا».

استَقبلَ جُثمان جُبران نحو ١٦٠ كَاهِنًا في مَأتمٍ جَلَلٍ شَهدتْه كَاتِدرائيةِ القدّيس جِرجِس في بيروت.

فَشَلَ الثّرى في أنْ يقبُرَ «عواصفَ» جُبران، وعاشتْ فَلسفتُه لتَثيرَ غَضبَ مُعظمِ رِجَالِ الدّين –مَسيحيين ومُسلمين– وحَناجرَ المُتشدّدين وسخَطَ المقلّدِين ممّن صَدَأتْ أَروَاحُهم وأُغلقتْ عُقولُهم. وسَيظلُّ جُبران نَاقوسًا مُزْعِجًا مَا بقىَ الشَرقُ جَسدًا تَنهشُه عِلَلُ البَلاَدة، وأهلُه يتلذّذُون ركوعهم مِن المهْد إلىَ اللّحدِ أمَامَ طَواغِيتِهم ومَا أَلفَوْا عَليه آباءَهم، دُونَ أنْ يَتأملُوا الحَياةَ ويُعِيدوا مَعرفةَ أَنّفسِهم بِوعْيٍ وَفكْر طَلِيق.

جُبران خليل جبران
١٨٨٣م-١٩٣١م
حياتُـــه وآثـــارُه

مولده.. نشأته.. سفره

وُلد جُبران في بَلدة بشرّي المتّكئة عَلى كَتِف وَادي قاديشا، في ظِلالِ الأَرْز حَيثُ تَتَفجرُ الأَرْضُ مَاءً وخُضرةً وزهرًا، والثُلوجُ تعمّم الجِبالَ مُعظمَ فُصولِ السنة، وكَانت وِلادتُه صَباحَ السَادسِ مِن كَانُون الثاني (يناير) سنة ١٨٨٣م، في كَنَفِ عائلةٍ قليلةِ الموارِدِ مؤلّفة مِن الأب خليل، والأم كامِلة رحمة التي كَان لهَا مِن زَواج سَابق ولدٌ اسمُه بُطرس، ورُزقت مِن زَواجها مِن خليل جُبران ثلاثةَ أَولاَد: جُبران أكبرهُم، وأُختَاه مَرْيانَا وسُلطَانة.

في الخَامسةِ مِن عُمره تَلّقىَ مَبادئَ العَربيّةِ والفَرنسيّة والسِّريانيّة في مَدرسةِ أليشاع «تحت السّنديانَة» وتعرّفَ عَلى النَهضةِ الإيطاليةِ مِن جَرّاء تردّده علَى مَركزٍ للرُّهبَان الإِيطَاليين.

أُصيبَ والده بِنكسة ورَاحَ ضَحيةَ تُهمة أودَت بِه إلىَ السّجن، فَلملَمت كَامِلة رحمة نفسَها وسَافَرت مَع أولادها الأَربعة: بُطرس، وجُبران، ومريانا وسلطانة إلى أمريكا، سنة ١٨٩٤م.

في بوسطن:

استقرتِ العَائلةُ في الحيّ الصينيّ مِن مَدينةِ بُوسطُن، حَيثَ دَخلَ جُبران مَدرسةً شَعبيةً تَعلّم فِيها أصولَ اللغةِ الإنجليزيّة، وكَانَ له، بِفضلِ مُعلّمته الأمريكية، لِقاء مَع «فريد هولاند» الذي ساعدَه عَلَى دِراسةِ تِقنيةِ الرسْمِ ومكّنه مِنْ مُواصَلة تَعلّم الإنجليزية.

وبَعد ثَلاث سَنوات مِن العَملِ والكَدّ، استَطاع أَفرادُ أسرتِه أن يَجمعُوا مِقدارًا مِنَ المَال مَكّنهم مِن إرسَال جُبران إلى بَيروتَ ليدرُسَ اللغَةَ العَربيةَ والفَرنسيّة، لأَنهم تَوسّموا فِيهِ الرجلَ النَابغةَ الذي سَيكون له مُستقبلٌ بَاهر، ومكانةٌ سامِقة، في عَالم الفِكر.

بيروت: مدرسة الحكمة:

في بَيروتَ التحَقَ بِمدرسة «الحِكمة» وطُوال ثَلاثة أعَوام اسْتَطاعَ أن يُوسّعَ مَعرفتَه باللّغة العَربيّة، وتتفتَحَ له، بفضلِها، آفاقٌ جَديدة، وكانَ له رُفقاءُ وطّد معرفتَه بهم، ومِنهم النحّات يوسُف الحويك الذي سيكونُ لَهُ شَأنٌ كَبير في حيَاة جُبران. وكَان مُعلّمه في اللّغة العَربيّة الخوري يوسُف الحدّاد الذي استَقَى جُبران مِنهُ اللُغَةَ مِن مُورِدهَا العَذْب، فَأجادَهَا وأَبْدعَ فِيهَا.

العودة إلى بوسطن: تجربة الموت:

وفي عام ١٨٩٩م، عامَ عَودته إلى بُوسطن بَدأَ في مُزاوَلـةِ الرّسْـم والكتَابةِ، لَكنّ الفَواجِعَ العَائِلية تَوّالت عَليهِ فَأوقَفتهُ مُرغَمًا أمَام تَجرُبة الموتِ، وذَلك عِندَما مَاتت أُختُه الصُغْرَى سُلطَانة بِمرض السّل عَـام ١٩٠٢م، ولحِقَ بها أخوه بُطرس، ثُمَّ أمّه، في السنةِ التَاليـة، وبِـالمَرض عينِهِ، فَاستوْلى الحُزنُ واليَأسُ عَليه، وَعبّر عَن ضَراوة ألمـه بِقولـه بَعـد مَوتِ أمّه: «فَقدتُ يَنبوعَ الحُنوّ والرَأفَةِ والغُفْرَانِ والصّدرَ الذيِ أسـندُ إليه رَأسي، واليَد التي تُبَارِكني وتَحرُسني».

إلاَّ أنّ هَذهِ الفَواجِعَ لم تهدّ عَزيمَةَ جُبران، بـلْ وجـدَ فِيهَـا حَـافزًا للانطِلاقِ مِن جَديدٍ في عَـالمِ الفَـنّ، واسـتطَاع سَـنة ١٩٠٤م أنْ يُقـيمَ مَعرِضًا لرسُومه الرّمزيّة، تَعرّفَ خِلاله إلىَ سَيدةٍ أمْريكية تُدعىَ «ماري هاسكل»، وعَلَى جَانب مِنَ الثّـراء، فَقـد أُعجِبـتْ بِرسـومِه وأَظهـرتْ إعجابهَا بها، ودَعتْه إلى عرْضِها في المدرسةِ التِي كَانت تديرُها.

وقدْ كَان لماري هَاسكل هَـذهِ دَورُهَـا الحَاسـمُ في تَوجِيهـه الأَدبيّ والفَنيّ. فَقدْ مَنحت الفَنانَ النَاشئَ رِعَايتَها ومُسَاعدتَها فأكـبّ يَرسُـم ويكتُب، وَينطلِق، وبِالتَـالي، في عَـالَم الـشُهرة، وشِـعارهُ: «لا أريـدُ أن أكتُبَ اسمي بِماء عَلَى سِفْر الوجود، بَل بِأحرفٍ مِن نَار».

وفي العَام نفسه، ١٩٠٤م التَقَى جُبران أمين الغريب صَاحبَ جَريدة «المُهاجَر» فأُعجِبَ هَذا الأَخيرُ إعجَابًا شَديدًا بِخَواطِرِ جُبران ورُسُومِه. وعَرضَ أن يَنشرهَا في جَريدَته، وفي آذار (مارس) مِنَ السّنَةِ نَفسِها ظَهرَ أولُ مَقَال لجُبران عِنوانُه: «رُؤيَا» وكَان لَهُ صَدَاهُ الواسِعُ والعَمِيقُ والبَليغُ لَدَى القُراءِ مِنْ حَيثُ طَرَافَةِ النّهج والإبدَاعِ في الخَيَالِ.

هَذهِ الانطلاَقةُ شَجَعتْه عَلَى أنْ يَجمعَ مَا كَانَ ينشُره في الصّحف مِن مقَالاتٍ وأقَاصِيصَ في ثَلاثةِ كُتُبٍ نَشرَها عَلَى التوَالي خِلالَ أَربَع سَنوات وَهيَ: المُوسيقى (١٩٠٥م)، وعَرائِس المُرُوج (١٩٠٦م)، والأَروَاح المُتمَردَة (١٩٠٨م).

باريس: تجربة فنية لامعة:

وكانَ جُبران أبدَى لماري هاسكل رَغبَته في تَعلُّم أصولِ الرّسم في بَاريسَ، فَلم تَقفْ ماري حَائِلاً دُونَ تحقيقِ رَغبتهِ، إذْ لم تَكُن تَضِنَّ عَليهِ بِالمُسَاعَدة الماديّة. كَما لم تكُن تَضِنّ عَليهِ بِحنَانِها، فلّبت رغبته وأرسَلتهُ إلى باريس عام ١٩٠٨م.

وفي باريسَ أقَامَ سَنتين يختلفُ إلى مَدرسَة «الفنُون الجَمِيلة» ويَتلقىَ دُروسَ «أكَادِيمية جُوليَان» التي لم يَطُلْ بِه الوَقتُ حَتى تَركَها

لِيُمَارِسَ الرسّمَ الحُرَّ في مُحترف اسْتَأجَرَه هُو وصَدِيقُه النّحَات يُوسف الحويك. وكَانت هَذِهِ المَرحَلةُ مِنْ حَيَاتِه محطّةً بَارِزة فَتحتْ لَهُ آفَاقًا جَدِيدة. ولم يَنسَ «لُبنانه» فظَلَّ يحِنّ إليهِ ويَتَذكّره شَمسًا طَالِعةً مِن وَرَاءِ صَنين، أو جَانِحةً إلى الغُروب. وطلولاً وأوديةً يَنسَاب مِنها السّحْر انسِيابَ العِطر مِن الزهْر الفوّاح. أمَا الكسْبُ الرَفيعُ الذي نَالهُ في بَاريس والذي ملأهُ عِزّة وفَخرًا. وهُوَ أنَّ الجَمعية الوطنية للفِنون الجَميلة، في بَاريس، اختَارت إحدَى لَوْحَاته مِنْ بَين تِلكَ التي عَرضَها في المَعرِض الذي أقَامته. فَلا تَسلْ، إذ ذَاك، عَن نَشوة الفَنانِ التي تَفُوق كُلّ وَصْف.

إلى بوسطن فنيويورك:

عَام ١٩١٠م عَادَ إلىَ بُوسطن، وانتقلَ عَام ١٩١١م إلى نيويورك بِإلحَاح مِن أَمِين الريحانيّ الذي التقَاهُ في بَاريس، فَاستَأجرَ غُرفةً في غرينتش، حَيّ الفَنَانِين في تِلكَ المَدينَة، ونشر في السنة ١٩١٢م «الأجنحة المتكسرة» وهِيَ قصّة جَمع جُبران بَينَ دِفتَيها أصْدَاءَ خَفقَاتِ قَلبِه حَتى تعرّف، أثنَاء إقَامَته بَينَ بيرون وبشرّي إلى حلا الضاهر، وأَهْدَى هَذَا الكِتابَ عَربونَ وَفاءٍ إلى ماري هاسكل «التي تحدّقُ بالشمسِ بِأجفَانٍ جَامدة، وتَقبضُ عَلَى النّار بِأصابعَ غَيرِ مُرتَعشة،

وتَسمعُ نَغمةَ الرُوح الكلّي مِن ورَاء ضَجِيج العُميان وصُرَاخِهم».

في سَنة ١٩١٤م جَمعَ في كِتَاب أسماه «دمعة وابتسامة» مَقَالاتٍ كَانَ قَد نَشرَها في بَعض المجلّات والصّحُف. وفي الآنَ نَفْسه، كَانت ماري هاسكل تُشّجِعُه وتَدْفَعُه عَلَى الكِتَابةِ باللغَة الإنجليزية؛ فَأصدَر «المَجْنُون» سنة ١٩١٨م، و«السَابِق» سنة ١٩٢٠م.

وفي اللُّغَة العَربيّة صَدَرَ لَهُ «الموكب» سنة ١٩١٩م، و«العَوَاصِف» سنة ١٩٢٠م، و«البَدَائِع والطَرَائِف» عام ١٩٢٣م.

إبّانَ الحَرب العَالميةِ الأَولىَ، حَلّت الكَارِثة بِلُبنَان فَجوّعت أبنَاءَه وشرّدَتهم وقَضْت عَلَى الآلافِ منهم، فَتنغّص عَيشُ جُبران، وعبّر في سِلسِلةٍ مِنَ المقَالاتِ التي نَشَرهَا، عَن هَوْل الفَاجعةِ وأثرِهَا في نَفسِهِ، ولم يَكتفِ بالكتابةِ بَلْ سَاهَم مَعَ بَعض إخْوَانِه الأُدبَاءِ في إنْشَاء لجنَة إغَاثةِ المَنْكُوبِينَ التي استَطَاعت أنْ تُخفّف -بَعضِ الشَيءِ- مِن وَطأة المأسَاةِ عَلَى اللُبنَانِيين.

تأسيس الرابطة القلمية:

في هَذِهِ المرحَلة توَطّدت عِلاقَاتُ جُبران بِكَثيرٍ مِنَ الأُدبَاءِ اللُبنَانِيين والسُورِيين فِي المهاجر، فعَقَدُوا الاجتماعَاتِ الكَثِيرة وقَرّروا

إِنشَاءِ جَمعيةٍ تَنهضُ بِالأدب العَربيّ الرَاكدِ إلَى المُستَوى العَـالميّ. وبَعـدَ أَنْ وَضـعت الحَـربُ أَوْزَارَهَـا، اسْـتَمرت الاتـصالاتُ بَـينَ هـؤلاءِ الأُدبَاء، التي انْتَهت بِتَأسِيس «الرَابِطَـة القَلَميّـة» التـي كَـانَ شِـعَارُهَا انتِشَال الأَدَب العَربيّ «مِنْ وَهدَة الخُمُول والتَقلِيـدَ إلَى حَيـثُ يُـصبِحُ قُوةً فَعَّالة فِي حَياةِ الأمّة».

تَأَسَـسَت الرَابِطَـة سـنة ١٩٢٠م بِرئَاسَـةِ جُـبران، وكَـانَ سَـائرُ أَعضَائها المؤَسّسِين: ميخائيل نعيمه، نسيب عريـضة، رشـيد أيـوب، ندرة حداد، وليم كستفليس، إيليّا أبو ماضي، ورشيد الباحوط.

غَيرَ أنّ اهتمامَهُ بِأمُور «الرابطـةِ القَلميّـة» لم يَـصْرفْه عَـن الاهـتِمَامِ بِنتَاجِـهِ الشَخـصيّ فَأصـدَر سـنة ١٩٢٣م رَائِعتـه «النَبـيّ» بِاللغَـة الإنجلِيزية. قَالَ عَنهُ: «إنّه دِيَانتِي وأقدسُ قُدسيّاتِ حَيَاتي». وقال عنه لماري هاسكل فِي إِحدَى رَسَائِله: «أُريدُ أنْ أَحيَـا الحَقِيقَـةَ. بَـدَلاً عَـن الكِتَابةِ عَن النَّار. أفضّلُ أنْ أكُونَ جَمْرةً تَتَأجّج، أُرِيدُ أَنْ أَكُـونَ مُعَلـمًا. وبِمَا أنيّ مُستَوحَد أُرِيدُ التَحَدُّث إلَى جَميع المستوحدين».

مرضه وموته:

ومَعَ أنّ المرضَ لازَمَهُ كَطِيفٍ فَقَـضّ عَليـهِ مَـضجَعَه، إلاّ أنّـه مَـا

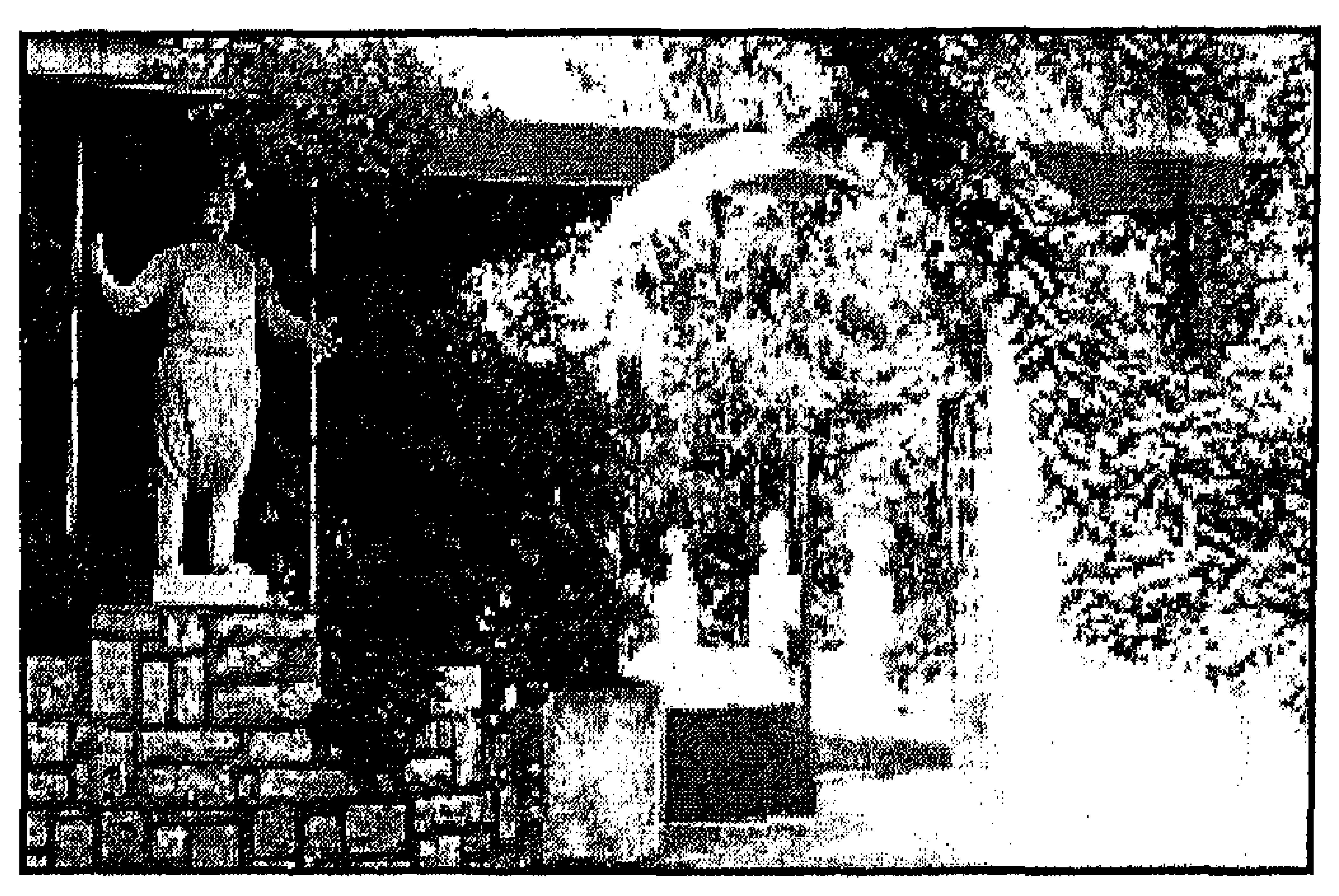
استَسلمَ لمشِيئةِ القَدَر، فَلم يَنْقَطِعْ يَومًا عَن الرّسْم والكِتابةِ، واستَطَاعَ أنْ يُصدِر عَلَى التوَالي في اللُّغَة الإنجليزية: رَمل وزَبَد (١٩٢٦م)، يسوع ابن الإنسان (١٩٢٨م)، آلهة الأرض (١٩٣١م سنة وَفاته) وصَدَر «التائِه» سنة ١٩٣٢م، أي بَعدَ وَفاتِه بِسَنةٍ وَاحِدة. و«حَدِيقَة النَبيّ» سنة ١٩٣٣م.

لكنّ طَاقةَ جِسْمَه اسْتَنفَذَهَا جُبران في عَمَلِه المُرهَق، فَلفَظَ أَنْفَاسَه الأَخِيرة في ١٠ من نيسان (أبريل) سنة ١٩٣١م، ونُقل جُثمانُه صَيفَ ذَلِكَ العَام إلىَ مَسقَط رَأسَه بشرّي، بِناءً عَلىَ وَصيّته. وكَانت رَقدَتُه الأَخِيرةُ في صَوّمَعةِ دِير مَار سَركِيس المُطّلةِ عَلَى الوادي المُقدّس.

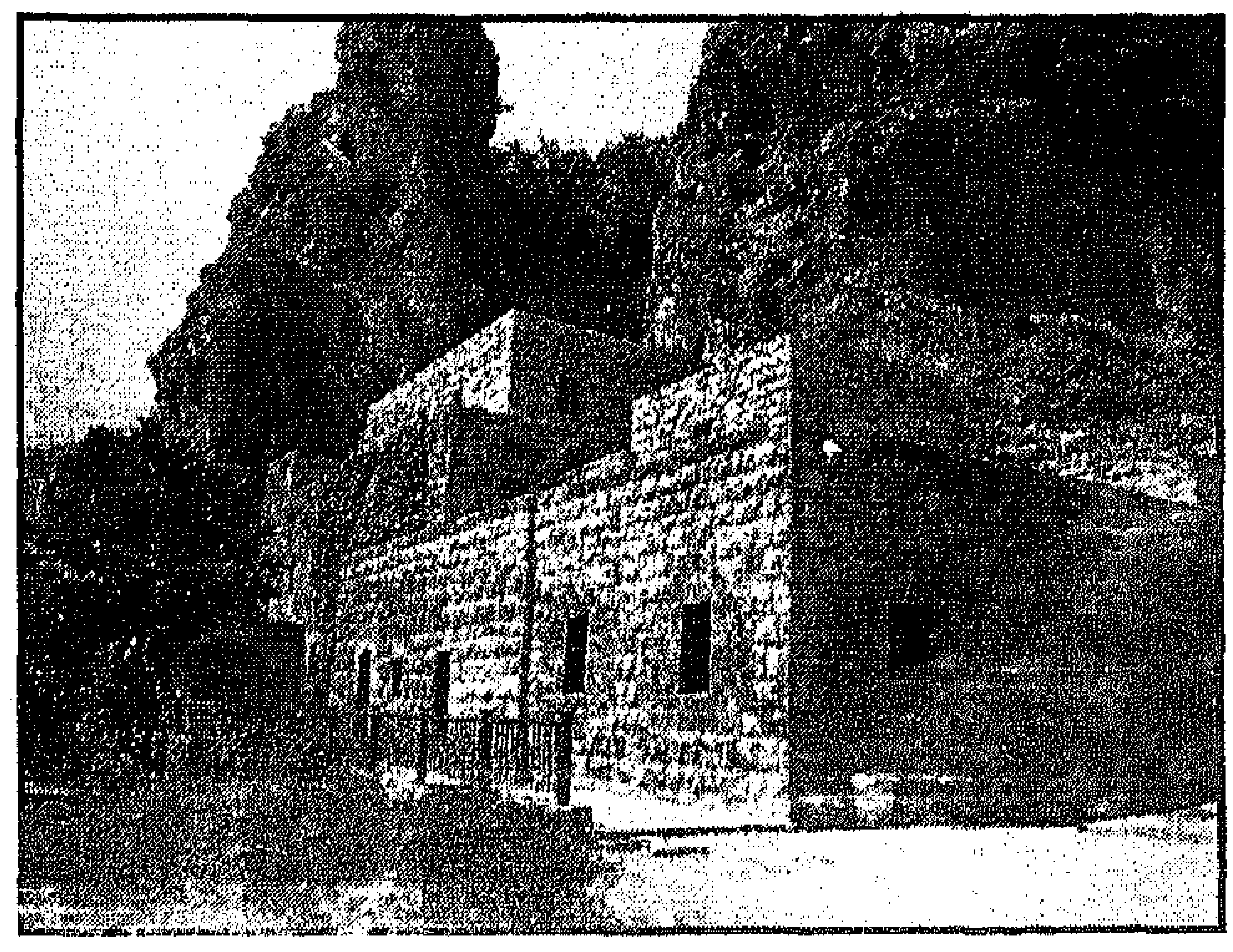
□□□



جبران في مدرسة الحكمة – بيروت



منزل جبران في بشري



قبر جبران ومتحفه في غابة مارسركيس

التَائِـــه

تعريـف:

صدر هذا الكتاب بالإنكليزية تحت عنوان The wanderer (عن دار كنوف في نيويورك) سنة ١٩٣٢م. والعنوان يعني التائه أو الشريد أو الأفّاق. أتمّه جبران في خريف سنة ١٩٣٠م وهـو طـريح الفـراش ولم يشأ نشره إلاَّ بعد أن يتعافى. وقد نقّحه في مطلع سنة ١٩٣١م لكنه مات قبل نشره.

انطوى «التائه» على اثنتين وخمسين حكاية أسطورية أو رمزية على غرار حكايـات «المجنـون» و«الـسابق» وقـد عـرض فيهـا، بأسـلوبه المجازيّ، نظراته إلى المجتمع الغارق في تقاليـده وعاداتـه المتخـبِّط في تناقضاته وأوهامه وأحلامه. وقد اتَّسمت بالطابع الـسخريّ الـلاذع حينًا والمرير حينًا آخر.

لم تَرِدْ آراء جبران على لسان أشخاص فقط، بل على لسان الأنبياء والبهائم والأزهار أيضًا. ومنها ما يكتنفـه الغمـوض بحيـث يمكـن تأويله أو تفسيره بمغازٍ شتّى.

عرَّف جبران «بالتائه» في مقدّمة الكتاب وفي نهايته جاعلاً له وجهين متقاربين: التائه الأوّل مُعدم بائس يغمره ألم عميق، والآخر متسكّع على الطرق لا يخلو من جنون.

عرض المضمون وتحليله:

تتفاوت حكايات الكتاب أهميّة، منها ما هو بليغ العبرة ومنها ما هو عاديّ تعوزه الطرافة، أو هو ترديد لما ورد في كتب سابقة بصيغة مختلفة. وسنعرض ههنا ما رأيناه مثيرًا للاهتمام.

في «**ملابس**» تأكيد على أن الظواهر لا تُخفي الحقيقة فالجمال يبقى جمالاً حتى في ثوب رديء والقبح لا تجمّله أفخر الملابس.

في «**النسر والقبّرة**» تعالى النسر على القبّرة فذكَّرته هذه بأنهما من أسرة واحدة، أسرة الطيور، فلا يجوز له بالتالي أن يزدريها. فلم يقتنع إلاَّ حين تدخّلت السلحفاة الغريبة بينهما فصرفها النسر ولم يشأ أن يكون للغريب دخل بينه وبين أخته القبّرة. إنها دعوة إلى توحيد كلمة المواطنين أو أفراد العائلة الواحدة بوجه الدخلاء.

في «**أغنية الحب**» وصف للشاعر الذي ينشد الحبّ للحبّ في

المطلق بصرف النظر عن مصدر الجمال والإلهام.

«**الأميرتان**» نموذج عن ازدواجيّة العلاقة الزوجيّة إذ كلّ من الزوجين يتحمّل الآخر بصبر فيما هو ينظر إلى حبيب آخر. فالسعادة الظاهرة بين الزوجين لا تخلو من خداع وذرّ رماد في عيون الغير.

في «**وميض البرق**» نقد للتعصّب الدينيّ لأن الخلاص ليس حكرًا على دين دون آخر، فالأسقف الذي جاءته امرأة غير مسيحيّة ترجو الخلاص من الجحيم، قضت عليه الصاعقة لأنه لم يستجب لها.

في «**الراهب والوحوش**» يرى الكاتب أن مَنْ لم يعرف الحبّ عن طريق رفيقة حياته لا يستطيع أن يكون صادقًا في كلامه عن الحبّ.

«**اللؤلؤة**» لعلّ هذه الحكاية الخرافيّة أروع حكايات الكتاب من حيث مغزاها العميق. فيها تمجيد للألم الذي يفجّر ينبوع الحسّ إبداعًا. المحارة السليمة عقيمة النتاج أمّا جارتها العليلة فهي تفرز اللؤلؤة الباهرة. وهنا يلتقي جبران كبار الرومنسيّين الذين يرون في الألم مصدر إبداع.

في «**الملك**» تطرّق لواقع العلاقة بين الحاكم والشعب. ثار الناس

على ملكهم فاعتزل هذا الحكم ومضى يعمل في الحقل مع رعاياه. لكنّ الشعب ظلّ غاضبًا يطلب مَنْ يسوسُهُ، يطلب ملكًا، فأعادوا الملك إلى عرشه. عندئذ قال لهم إنه فكرة في عقولهم وهي ثمة حاكم ومحكوم. لا تخلو الحكاية من نقد جارح للأسقف الذي يستعبد المؤمنين ليملأ خزائنه بالذهب.

في «**على الرمل**» تأكيد على وحدة الوجود إذ الناس كلّهم قطرات ماء في المحيط الأكبر.

في «**الهدايا الثلاث**» دعوة إلى الرصانة وحفظ اللسان وإلاّ كانت العاقبة وخيمة.

في «**السلم والحرب**» هزء بالمدنيّة الزائفة التي تولّد الحروب ولا تعمل في سبيل السلم، إذ لا معنى لاكتشافات العلم والفن إن لم تُوظّف في خدمة الأمن صونًا للحياة.

الراقصة: أُعجب الأمير بالراقصة فسألها من أين أتت بفنّها فقالت: روح الفيلسوف في رأسه، وروح الشاعر في قلبه، وروح المغنّي في حنجرته، أما روح الراقصة ففي جسدها كلّه. وقد قصدت بقولها إن الراقصة تتخذ أداة من كل جسمها الذي تحرِّكه على إيقاع

الأغنية، كما يوقّع الموسيقيّ على أكفه.

الملاكان الحارسان: نشب خلاف بين ملاكين حول مهمَّتيها. أولهما يحرس إنسانًا خاطئًا والثاني قديسًا. وانتهى بهما الأمر إلى شجار عنيف. تدخّل فيما بينهما مَلاك أعلى ودلّ المهمّتين بينهما ثم رأى أن لا بدّ من حارس على الملائكة الحرّاس.

التمثال: عثر فلاَّح على تمثال رائع شاهده أحدهم وفرض عليه شراءه بقطعة فضة، فما تردّد الفلاَّح في القبول. واتّفق أن مرّ الفلاَّح في المدينة فسمع أحدهم يصرخ: تعالوا إلى مشاهدة أروع تمثال مقابل قطعتين من الفضّة. ورأى الناس يقبلون على رؤية التمثال فدفع بدوره قطعتي فضة ودخل ليشاهد التمثال فإذا هو الذي كان قد باعه بقطعة واحدة.

المجنون: لقي الرواي شابًا في حديقة مارستان، فسأله لماذا هو هناك؟ فأجابه إنه هرب من جميع الذين أرادوه أن يكون على صورتهم، من أبيه إلى عمه إلى أخته وأخيه إلى الفيلسوف، والفنَّان. وآثر أن يُعدّ مجنونًا ويكون كما شاء أن يكون.

الضفادع: قالت ضفدعة لرفيقتها إنها تخشى أن تزعج ساكني

البيت على الشاطىء. فأجابتها: هم أيضًا يزعجوننا بثرثرتهم كما يزعجنا السياسي، والكاهن والعالِم بضوضائهم. قالت الضفدعة الأولى: فلنكن أفضل منهم زنحفظ أغانينا في قلوبنا. وصمتت الضفادع. لكن المرأة الثرثارة بجانب البحيرة قالت لزوجها إنها لم تنم لأنها منذ ليالٍ عادت لا تسمع نقيق الضفادع. ولما سمعت الضفدعة هذا الكلام قالت لرفيقتها: كان صمت الليل ثقيلاً علينا وقد أصبح بإمكاننا أن نعود إلى الغناء ترفيهًا عن الذين يملأُون فراغ نفوسهم بالضجيج. نقد لاذع موجّه إلى الثرثارين في مختلف الحقول الذين يجدون في تفاهات الكلام هدفهم في الحياة.

الشرائع والتشريع: اختار ملك كبير حكيم ألف حكيم، وطلب إليهم سنّ قوانين المملكة. فلما فعلوا وقرأ ما كتبوه بكى، لأنه ما كان يعلم أن في مملكته ألف شكل للجريمة. حينذاك دعا بكاتبه وأملى عليه سبعة قوانين رآها كافية. لكن كل فريق تمسك بشريعته، وهكذا ظلّ في المملكة ألف شريعة، وظلت السجون ملأى بالخارجين على الألف شريعة. نَقْدٌ لروح الشرائع التي لا تنبع من العدالة لكي تمنع الإجرام وتفرغ السجون.

بناة الجسور: لولا البغال التي حملت الحجارة لما بُنِيَ الجسرُ، ومع هذا اعتزّ الملك بأنه هو باني الجسر. إلاَّ أن مجنونًا كشف عن الحقيقة. وتعجَّب البغل كيف يقول الناس إن الملك هو مَنْ بَنَى الجسر. يرمز الكاتب إلى الإقطاعيين الذين يستعبدون عامة الناس ويرتفعون على كواهلهم المتعبة.

الحزام الذهبيّ: مضى رجلان إلى مدينة سالاميس ولما بلغا حافة النهر آثرا أن يعبراه سباحة بدل سلوك طريق آخر يجهلونه. جرف التيّار أحدهما، فأنقذه رفيقه الذي يجهل السباحة مؤكدًا له أن حزامه الذهبيّ أنقذه لأنه حوى ما جمعه من عرق جبينه لإعالة عائلته. ومغزى الأسطورة أن شعوره بالمسؤولية عزَّز ثقته بنفسه ونجّاه من الغرق.

النبيّ الناسك: كان نبيٌّ متنسكًا لا يترك صومعته إلا ثلاث مرات في السنة ليمضي إلى المدينة ويعظ الناس. جاءه يومًا ثلاثة رجال وقالوا له: وعظت الناس بالبذل والمشاركة، تعال وقدِّم لنا إذن من أموالك. تقريع بالنسّاك الذين يعملون خلاف ما يعظون به. الأعمال أصدق من الأقوال.

الخمرة العتيقة: من لم يُفد في حياته ممّا لديه بسبب البخل فقد يموت فيفيد منه سواه.

القصيدتان: ليس الشعر بكميته بل بجودته، فالقصيدة الطويلة المبتذلة حتى ولو ردَّدتها الأجيال فإنها لن تجذب القلوب؛ بينما الأبيات القليلة المعبّرة عن حالة نفسية صادقة هي التي تُثير الإعجاب. إنها نقد سرديّ للمنظومات الطويلة التي تبعث الملل في النفوس بدل الإعجاب.

الليدي روث: قام جدل حول صاحبة البيت، الليدي روث، واختلفت الآراء بين رجال ثلاثة. قال عنها أوّلُهم: إنها ساحرة عجوز، وقال الثاني: إنها تمتصّ دم العبيد لديها، والثالث قال: إنها جميلة شاعرة. أما اللايدي فكانت قد ماتت منذ ثمانين سنة. نقد للجدال العقيم الذي لا يستند إلى واقع.

الفأرة والهرّ: عودة إلى مبدأ التقمّص الذي تشير إليه الحيوات التسع.

الرمّانات: عرض مُزارعٌ رماناته لقاء لا شيء، فلم يُقبل عليها أحدٌ. لكنّه لمّا عرضها بسعر مرتفع تدفّق الناس على شرائها. دليل على

شكّ الناس بقيمة المعروض من السلع بسعر رخيص أو بدون ثمن.

المسألة: دار حديث بين فيلسوفين. سأل أحدهما الآخر: إلى أين ذاهب؟ فأجابه: إنه يبحث عن عين الصِبا، وكان الآخر يبحث عن سرّ الحياة؛ فاتَّهم كلٌّ منهما رفيقَه بالعماوة الروحية. ومرّ غريب جاهل توسَّط بينهما وقال: إنكما تنتسبان إلى مدرسة فلسفية واحدة وأنتما تتحدثان عن شيء واحد، فعين الصِبا وسرّ الموت هما في الحقيقة شيء واحد. مَثَلٌ على وَحدة الوجود.

العثور على الله: دلّ رجل رفيقه إلى صومعة يقيم فيها رجل طلَّق الدنيا ليبحث عن الله، فأجابه: إنه لن يجد الله إلاَّ إذا هجر نُسكه وشارك الناس في أفراحهم وأتراحم.

نظرة عامة:

يعود بنا «التائه» إلى جوّ «المجنون» من حيث الهزء بالتقاليد المتحجِّرة والمجاملات الزائفة والتناقض بين القول وادعاء المعرفة واحتكار الفضيلة، فضلاً عن النقد المبطن لرجال الدين والسياسة، والتأكيد على مبدأ التقمّص ووحدة الوجود، والتمجيد بالحبّ الصادق والحريّة الخلاّقة، والتعالي عن الصغائر.

يبدو أن جبران الذي كان قد تحرّر من النزعة الهدّامة التي ظهرت في كتبه قبل «السابق» ونَعِمَ بالصفاء الكلّي في «النبيّ»، عاودته السويداء عند كتابة «التائه». فهو بعد أن كان قد اطمأن إلى تحقيق طموحه الأدبيّ، انتابه قلق حين اشتدت عليه العِلَّة فهَيْمَنَ شَبَحُ الموت على آفاقه في رحلة العمر الأخيرة.

ليس في «التائه» جديدٌ أضافه جبران إلى نتاجه لا من حيث الأفكار ولا من حيث النهج الكتابيّ، إنه من حصرم كرمه.

***

جبران خليل جبران

التَــــــائِه

عرّبَـه

عبد اللطيف شراره

التَــائِـــه

لقيتهُ على مُفترقِ الطُرقِ، وكانَ رجُلاً مُعدَمًا لا يَملكُ سِوى ثَوبِهِ وعُكَّازهِ، تعلُو مُحيَّاهُ مِسحةُ ألمٍ عَميقٍ. وحَيَّا كلٌّ منا الآخرَ، وقلتُ لـه: «تعالَ إلى مَنزلي وكُن ضَيفي».

وقَبِلَ الدَعوةَ...

واستَقبلَتْنا زَوجتي مَع أولادِي عَلى عَتبةِ البَيتِ، فابتَسَم لهُم ورَحَّبُوا من جَانِبِهم بمَقْدَمِهِ.

ثم جَلَسْنا جميعًا إلى المَائِدَةِ، وكُنّا في غِبطَةٍ من لقاءِ هذا الرجُلِ الذي يَكتنفُهُ[1] الغُموضُ، ويُهيمِنُ الصَمتُ في سَريرته[2].

واجتمَعْنا بعدَ العشاءِ حَول النارِ، ورُحتُ أسألُهُ عن جوَلانه.

وقصَّ عَلينا أكثرَ من قِصّةٍ في تلكَ اللَيلةِ، وفي اليومِ الذي تَلاها، غيرَ أنَّ ما أَرويهِ الآنَ، إنّما هُو زُبدةُ ما كابَدَ[3] في أيّامِهِ مِن مَرارَةٍ، وإنْ

(١) يكتنفُه: يُحيط به.

(٢) يهيمن: يُسيطر؛ سريرته: سرّه، كيانه.

(٣) زُبدة: خلاصة؛ كابَدَ: عانى، قاسى، تحمَّل؛ زبدة ما كابَدَ: خلاصةُ ما عاناهُ.

كانَ هو نفسُه أثناءَ سَردِه لَطيفًا، قَريبًا من القَلبِ. وهذه الحكاياتُ أثـرٌ من غُبارِ طَريقِهِ، وبَعضٌ من نِتاجِ المَشقَّةِ التي كابَدَها وتحمَّلها.

وعندما تَرَكَنَا، بعدَ ثلاثةِ أيـامٍ، لم نَـشعُرْ أنَّ ضـيفًا رَحَـل عنّـا، بـل واحِدًا منّا لا يزالُ خَارجَ المَنزلِ في الحَديقة، ولَمَّا يَدخُلْ.

***

مـلابــس

تلاقَى الجَمالُ والقُبحُ ذاتَ يومٍ عَلَى شَاطئِ البَحر، فقالَ كُلٌّ مِنهُما للآخَرِ: «هل لكَ أن تسبحَ»؟

ثم خَلعا مَلابسَهما، وخاضَا العُبابَ[1]، وبعد بُرهةٍ عادَ القُبحُ إلى الشَاطئِ وارتَدَى ثيابَ الجَمال، ومضَى في سَبيلِهِ.

وجاءَ الجَمالُ أيضًا مِنَ البَحر، ولم يَجِدْ لباسَه، وخَجِلَ كُلَّ الخَجلِ أن يكونَ عَاريًا، ولذلك لَبِسَ رِدَاءَ القُبحِ، ومضَى في سَبيلِهِ.

ومنذُ ذلك اليومِ، والرجالُ والنساءُ يُخطِئون كُلَّما تَلاقَوْا في مَعرفَةِ بعضِهم البعضَ.

غيرَ أنَّ هنالك نَفَرًا مِمَّن يَتفرَّسُونَ[2] في وَجهِ الجَمال، ويَعرِفُونَه رُغمَ ثيابِه، وثَمَّةَ نَفَرٌ يَعرِفُونَ وَجهَ القُبحِ، والثوبُ الذي يَلبسُه لا يُخفِيه عن أعيُنِهم[3].

(١) العُباب: الموج. وعبابُ البحر: موجه. ويُقال جاؤوا بعُبابهم أي أجمعهم.

(٢) نَفَرًا: الجماعة من الرجال من ثلاثة إلى عشرة. جمعها أنفار؛ يتفرَّسون: ينظرون ويثبِّتون النظر لإدراك الباطن من نَظَرِ الظاهر.

(٣) العِبرة: تكلُّف الإنسانِ غير ما هو عليه لا يُخفي عن الناس حقيقته. قد يعجبك الرجلُ إذا نظرت إليه؛ ولكنك إذا تدبَّرته تجدُ أن وراء الرُخام سخامًا يقزِّز نفسَك وينفِّرك.

النَسر والقبَّرة

تلاقى نَسرٌ وقُبّرةٌ على صَخرةٍ فوقَ رَبوةٍ عَاليـة. قالـتِ القُبّرة: «طابَ صَباحُكَ أيُّهـا السيِّدُ». فنظَرَ إليها النَسرُ مَن عَلُ[1]، وقـال بصَوتٍ خَافِتٍ: «طابَ صَباحُكِ».

وقالتِ القُبّرةُ: «أرجُو أن يَكونَ كـلُّ شَيءٍ عَلى مَـا تَـرُوم[2]، أيها السيِّد». أجابَها النَسرُ: «أجَلْ كُلُّ شيءٍ عَلى مَا نَرومُ. وَلكِنْ ألا تعلَمِينَ أنّني مَلِكُ الطُيورِ، وأنّه لا يجُوزُ لـكِ أنْ تُخاطِبِينا قبلَ أن نَبدأكِ بالكَلامِ»؟

قالتِ القُبّرةُ: «يَلوحُ لي أنّنا مِنَ الأُسرةِ نَفسِها».

نظرَ إليها النَسرُ بازدِراءٍ[3] وقالَ: «مَنْ هُو هذا الذي قالَ إننا من أُسرةٍ واحِدَةٍ»؟

---

(١) علُ: اسم بمعنى فوق. يقال «من علُ» مبنيًا على الضمِّ إذا أُريد به المعرفة، و«من علٍ» معربًا إذا أُريد به النكرة.

(٢) تروم: تريد، ترغب.

(٣) بازدراء: باحتقار.

أجابتِ القُبّرةُ: «وَلكنّي أَودُّ أن أُذَكِّرَكَ بهذا الأمرِ، وهو أنَّ في مُستَطاعي أن أطيرَ في العَلاءِ كما تَعلُو، وفي مُستطاعي أن أُغنّي وأُدخِلَ الفَرحَ علَى قُلوبِ المَخلُوقاتِ الأُخرَى من أبناءِ الأرضِ، ولا تَملِكُ أنتَ أن تُقدّمَ لها فَرَحًا ولا مِتعَة».

عندَ ذاكَ غَضِبَ النَسرُ وقالَ: «فَرَحٌ ومِتعَةٌ! أنتِ أيَّتُها المَخلوقةُ الصَغيرةُ المُدَّعِيَةُ! إنّي لَقادِرٌ على تَحطيمِكِ بنقرةٍ واحدةٍ من مِنقاري، وما أنتِ إلاّ بحَجْمِ قَدَمي».

فما كانَ مِنَ القُبَّرةِ إلا أنِ ارتمَتْ على ظَهرِ النَسرِ وأخذَتْ تَنقُرُ ريشَه. وأحسَّ النَسرُ بضِيقٍ وانزِعَاجٍ، وطارَ بقوّةٍ وارتفَعَ ما استطاعَ الارتفاعَ وقد أضمَرَ[1] أن يُلقيَ القبّرةَ عن ظَهرِهِ، ولكنَّه أخفَقَ[2] في ذلكَ. وأخيرًا انطرَحَ على الصَخرةِ العَاليةِ ذاتِها التي طارَ عَنها، وهو أشدُّ ما يكونُ غَيظًا وحَنَقًا، ولم تُفارِقِ القبّرةُ الصغيرةُ ظَهرَه، وراحَ يَلعنُ تلكَ السَاعةَ وما قُدّرَ له فيها.

واقترَبَتْ مِنهُ في تلكَ اللحظةِ سُلحَفاةٌ صَغيرةٌ، واستغرقَتْ في

(١) أضمر: أخفى في نفسه شيئًا عزم عليه.

(٢) أخفق: فشل. ضد نجح وأفلح.

الضَحِكِ من المَنظرِ، واستمرَّتْ تضحَكُ حتَّى استلقَتْ على ظهرِهَا.

ونظرَ النسرُ من عَليائِهِ إلى السُلحفاةِ وقال: «أنتِ أيتُهـا المَخلوقـةُ البطيئةُ الحَدباءُ، اللاصِقَةُ أبدًا بالأرضِ! مِمَّ تَضَحكِينَ»؟

أجابَتِ السُلحفاةُ: «ذاكَ أني أراكَ تحوَّلْتَ إلى حِصانٍ، وقد رَكِبَكَ طيرٌ صَغيرٌ، غيرَ أن الطيرَ الصغيرَ هو الأحسنُ».

فقالَ لها النَسرُ: «انـصرِفي لـشَأنِكِ. إنهـا قَـضِيَّةُ أُسرةٍ بَيني وبـينَ أُختي القُبّرة، ولا دَخْلَ لغريبٍ فيها»[1].

***

(١) العِبرة: يجب ألا نسمح لليد الغريبة أن تمتدَّ لتصدِّع وحدتنا.

أغنية الحبِّ

نَظَمَ شاعرٌ مَرَّةً أغنيةَ حُبّ، وكانَتْ رائِعةً. وكتَبَ عِدّةَ نُسَخٍ منها وأرسَلَها إلى أَصدِقائِه ومعَارفِهِ مِنَ الرِجالِ والنِساءِ على السَواءِ، ولم يَنْسَ أن يُرسِلَها حتَّى إلى امرأةٍ شَابَّةٍ لم يَسبِقْ له أن شاهَدَها سِوى مَرّةٍ واحِدة، وكانَتْ هذهِ تُقيمُ وراءَ الجِبالِ.

وجَاءه رسُول من قِبَلِ تلكَ الشابّةِ، بعدَ يوم أو يَومَينِ، يَحمِلُ رسالةً تقولُ له فيها: «دَعْني أُؤَكِّدُ لك أنّني تأثّرتُ تأثُّرًا عميقًا بأغنيةِ الحُبِّ التي نَظَمْتَها لي. تعالَ الآنَ، وقَابِلْ والدِي ووالدتي، وسنتَّخِذُ التدابيرَ التي تَقتَضِيها الخِطبةُ».

وكتبَ الشاعرُ جوابَ الرسالةِ، وقالَ لها فيه: «لم تكُن، يا صَديقتي، سِوى أغنيةِ حُبٍّ صدرَتْ عن قَلبِ شَاعرٍ، يُغنِّيها كلُّ رجُلٍ لكلِّ امرَأة».

وكتبَتْ إليه ثانيةً تقولُ: «أيها الكاذِبُ الخَبيثُ في كَلماتِكَ! سأقيمُ منذُ اليومِ إلى سَاعةِ أجلي[1]، على كراهيةِ الشُعراءِ جَميعِهم بسَببِكَ»![2]

---

(١) ساعة أَجَلي: ساعة موتي.

(٢) العِبرة: الشاعر الذي يسلخ الكلماتِ من عميق ذاته، ويضمِّخها بشميم معاناته، إنما يتكلم بلسان كل إنسان ويصبح شعره معرضًا للإنسانيَّة عينها.

دموع وضحكات

لقيَتْ ضَبُعٌ تِمساحًا في العَشِيَّةِ، علَى شَاطئِ النيلِ[١]، واستوقَفَ كلٌّ منهُما الآخرَ وتبادَلا التحيَّةَ.

تكلَّمَتِ الضَبُعُ وقالَت: «كيفَ قضَيْتَ يومَك يا سَيِّد»؟

أجابَها التِمسَاحُ قائِلاً: قَضيتُه على أسوأ حَال، وإني لأَبكي أحيانًا في أَسَايَ وعَنَائي[٢]، والكائناتُ من حَولي تقُولُ دائِمًا: «ليسَتْ هذهِ سِوى دُمُوعِ التِمسَاح. وهذا يَجرَحُني إلى حَدٍّ لا سَبيلَ لوَصفهِ».

قالَتْ له الضَبُعُ عِندَ ذاك: «تتحدَّثُ عن أَسَاكَ وعَنَائِكَ، وَلكِنْ فَكِّرْ فِيَّ أيضًا، ولو للحظةٍ. إني لأحدّقُ إلى جَمالِ العَالَم، وغرائبِهِ ومُعجزاتِ بَدائِعِهِ، وأضحَكُ مُستَبشِرَةً عن فرحٍ خَالصٍ يُفعِمُ[٣] نفسِي، كما النهارُ يَضحَكُ، غير أنّ أهلَ الأدغالِ يقُولُون: ليسَ هذا سِوى ضَحِكِ الضَبُعِ»[٤].

---

(١) النيل: ثاني أطول أنهار العالم.

(٢) أساي: حزني، ألمي؛ عنائي: تعبي، معاناتي.

(٣) يُفعم: يملأ.

(٤) العِبرة: الأحكام المُسبقة قد تَضُرُّ بمن نحكم عليه، لأنها لا تصيب دائمًا الهدف، وتأتي وفقًا للظاهر غيرَ مُراعيةٍ باطنَ الإنسانه وحقيقته.

في السـوق

جاءَتْ مَرَّةً فتاةٌ من الريـفِ إلى السُوقِ، وكانَـتْ آيـةً في المَلاحَـةِ والظَرفِ، يتوزَّعُ مُحَيَّاهَا[1] الوردُ والزنبـقُ، وشَـعرُها بلـونِ الغُـروبِ، والفَجرُ يَبتسمُ على شَفتَيْها.

ولم تكَدْ هذه المخلوقةُ الساحرةُ، الغَريبةُ، تظهرُ، حتَّى أحدَقَ[2] بها الشُبَّانُ[3] ينشُدون التعرُّفَ إليها والتقرُّبَ منها: هذا يَوَدُّ أن يُراقِـصَها، وذاكَ يريدُ أن يَقسِمَ الكعكَ على شَرَفِها، وكلُّهم يَبتغُون تَقبيلَ خَدِّها. ألم يَكُنْ ذلكَ سُوقًا، بعدَ كُلِّ حِسابٍ؟

غـيرَ أنَّ الفتـاةَ أحـسَّتْ بـصَدمةٍ وأصَـابَها ذُعـرٌ وَامتِعـاضٌ[4]، وحَسِبتِ السوءَ في سُـلُوكِ الـشُبَّانِ، فَزَجَـرَتْهُمُ، وبلـغَ بهـا الغـيظُ أن صَفَعَتْ واحِدًا أو اثنَيْنِ منهم، على وَجهِهِ، ثم انـصرَفَتْ في سَبيلِها لا

---

(١) المحيَّا: الوجه. قيل سُمِّي بذلك لأنه يُخَصُّ بالذكر عند التسليم، فيقال: «حيَّ الله وجهك».
(٢) أحدَقَ بها: أحاط بها.
(٣) يَنْشُدُونَ: يطلبون.
(٤) امتعاض: غضبٌ وألم.

تَلْوِي عَلى أحدٍ[1].

وفيما هيَ تَتَّجِهُ عندَ المساءِ نحوَ بَيتِها الريفيِّ. قالَتْ في سِرِّها: «إني لأشعُرُ باشمِئزازٍ. مَا أَقلَّ أدَبَ أُولئِكَ الرجَالِ، وأَحَطَّ أخلاقَهُم! هذا شَيءٌ لا يُطاقُ. ولا يمكِنُ الصَبرُ عَليه».

وانقضَى عَامٌ كانَتِ الفَتاةُ الجميلةُ تفكِّرُ خلالَه كَثيرًا بالأسوَاقِ والرجَالِ، ثم قَدِمَتْ مَرَّةً ثانيةً إلى السُوقِ ومُحيَّاها وردٌ وزنبقٌ، وشَعرُها بلونِ الغُروبِ، والفَجرُ على شفتَيْها يَبتسِمُ. إلا أنَّ الشبَّانَ كانُوا ينظُرونَ إليها، ويَميلونَ عَنها. وقضَتْ نهارَها ذاكَ وهيَ وَحيدَةٌ، مُبعَدَةٌ، لا يتقرَّبُ منها أحدٌ. ولدَى العَشيَّةِ عادَتْ إلى مَنزِلِها وهيَ تَصيحُ في سِرِّها: «ما أقلَّ أَدَبَ أولئِكَ الشبانِ! إني لأشعُرُ باشمئزازٍ لا يُطاقُ، ولا يمكِنُ الصَبرُ عَليه»[2].

***

---

(١) لا تلوي على أحدٍ: لوى عليه: عطف أو انتظر. ولا تلوي على أحدٍ: لا تقف عند أحد ولا تنتظر.

(٢) العِبرة: الجمالُ هو جمال النفس وهو الذي يدوم ولا يذوي. أما جمال الشكل فمدعاة للملل. أما الفتاة فيجب ألا يدفعها غرورها إلى الانسياق للمظاهر الخادعة التي قد تصيبها بخيبة أمل كبيرة.

الأميرتــان

كانَ في مَدينةِ شَواكيس[1] أميرٌ يُحِبُّهُ الناسُ كلُّهم مِن رجالٍ ونساءٍ وِأولادٍ. وحتَّى بَهائمُ الحقلِ كانت تَألَفُهُ وتُقبِلُ عَليه تُحيِّيهِ وتَأنَس بحُضُورِهِ.

غيرَ أنَّ جميعَ الناسِ كانُوا يقُولُونَ إنَّ زوجتَه الأميرةَ لا تُحبُّه، ويَغلُو بعضُهم فَيحسَبُ أنَّها تكرَهُهُ.

وذاتَ يومٍ، جاءَتْ أميرةُ إحدَى المُدُنِ المُجَاوِرَةِ، تزورُ أميرةَ شِواكيس، وجلَستَا تتحدَّثانِ، وسَاقَهُما الحديثُ إلى ذِكر زَوْجَيْهِما.

قالت أميرةُ شواكيس بحرَارةٍ وتَحمُّسٍ: «إنِّي لأَحسِدُكِ على سَعادتِكِ مع الأميرِ زَوجِكِ. وإن كانَتْ قد مَرَّتْ أعوامٌ طِوالٌ على زَواجِكُما. أما أنا فإنِّي أمقُتُ[2] زَوجي، إنّه ليسَ لي وَحدي، وأنا في الحَقيقةِ أتعسُ امرأةٍ».

حَدَّقَتْ إليها الأميرةُ الزائرةُ وقالَتْ: «الحَقيقةُ يا صَديقَتي هيَ

---

(١) شواكيس: مدينة أسطورية.

(٢) أمقت: أبغضُ، أكره.

أنّكِ تُحبِّينَ زوجَكِ. نَعَمْ، لا تزالُ لديكِ عاطفةٌ جامِحَةٌ[1] نحوَه لم تُطلِيقيهَا بَعدُ، وتلكَ في المرأةِ حياةٌ كيَنبُوعٍ في بُستانٍ. ولكنْ وَاهًا لي ولزَوجي فإنّنَا لا نَنطوِي على أيِّ عَاطفةٍ، سِوى أنّ كُلاًّ مِنّا يَتحمَّلُ الآخرَ بصَبْرٍ صَامِتٍ. وأنتِ، وغيرُك من الناسِ، تَحسَبُونَ ذلكَ سَعَادةً»[2].

***

(١) عاطفة جامحة: عاطفة قوية.

(٢) العِبرة: الحياة الزوجية إن خلت من الثقة المتبادَلة والحبّ المتبادل، فرغت من مضمونها، وتحوَّل الزوجان إلى آلتين تحرِّكهما المصلحة.

* تشديد على ضرورة وجود الحب في العلاقة بين اثنين لأنَّ الحب مصدر حياة وتجدُّد وعطاء.

* الخداع «وظيفة اجتماعية حضارية» يتقنها كثير من الأزواج، ويتحمَّلها كثير آخرون.

وميض البرق

كانَ ذاتَ يَومٍ عَاصِفٍ، أسقُفٌ[1] مَسيحيٌّ في كَنيستهِ الكُبرى، وجاءَتْهُ امرأةٌ غيرُ مَسيحيَّةٍ، ووقفَتْ أمامَه، وقالَتْ: «لستُ مَسيحيةً. هَل لي أَنْ أخلُصَ مِن نارِ الجَحِيمِ»؟

حَمْلَقَ[2] الأُسقُفُ في المرأةِ، وأجَابَ: «لا، ليسَ ثَمَّةَ من خَلاصٍ إلاّ لأُولئِكَ الذين تَعمَّدُوا بالماءِ والرُوحِ»[3].

وفيما هُو يَتكلَّمُ انقَضَّتْ[4] مِنَ السَماءِ صَاعِقَةٌ على الكَنيسةِ الكُبرى، ودَوَّى الرعدُ، واندلعَتِ النارُ في الكَنيسةِ ومَلأَتْ أَرجَاءَها.

وأقبلَ رجالُ المدينةِ مُسرِعِينَ، وخَلَّصُوا المرأةَ. ولكنَّ الأسقُفَ كان قَدِ احترَقَ، وقَضَى طَعَامًا للنارِ[5].

---

(١) أسقُف: درجة كهنوتية عند المسيحيين هي دون المطران وفوق الكاهن.

(٢) حَمْلَقَ: فَتَحَ عينَيْه ونظر شديدًا.

(٣) العماد بالماء والروح: من أسرار الكنيسة المقدَّسة.

(٤) انقضَّت: سقطت بقوة مفاجئة.

(٥) العِبرة: ليس الخلاص حكرًا على دينٍ دون آخر. والدين إنما ينظِّم علاقة الإنسانِ بربه.

الراهب والوحوش

كانَ راهبٌ يعيشُ وَسَطَ الرَوَابي الخُضْرِ، وكانَ نَقيَّ الرُوحِ، أبيضَ القَلبِ، وكانَت جميعُ بَهائِمِ البَرِّ وطُيورُ الجوِّ تَأتِيهِ أزوَاجًا، فَيكلِّمُها وهيَ تُصغِي إليه مَسرورَةً مُستَبشِرَةً، وبُودِّها[1] أن تَتقرَّبَ منه، وأنْ تبقَى حتَّى مَغربِ[2] الشَمسِ مَعَه، ولكنَّه كانَ يَصرِفُها عَنه، ويترُكُها للريحِ والغَاباتِ بعدَ أن يُلقي عَليها بَرَكَتَهُ.

وفيما كانَ يتكلَّمُ ذاتَ أَصِيلٍ[3] عَنِ الحُبِّ، رَفَعَتْ فَهدَةٌ رأسَها وقالَتْ للرَاهِبِ: «تُكلِّمُنا عَنِ الحُبِّ، حَدِّثْنا أيُّها السَيِّدُ عَن رَفيقَةِ حَياتِكَ، أينَ هيَ»؟

قال الراهبُ: «ليسَ لي رفيقةُ حَياةٍ».

وارتفعَتْ عندَ ذاكَ صيحةُ دَهْشَةٍ كُبرى من جَمهَرَةِ[4] الوُحُوشِ

---

(١) بُودِّها: ما تحبُّه وترغب به.

(٢) مغرب: المغرب هو مكان غروب الشمس. والمقصود: حتى غُروب الشمس. لذلك من الأصوب استعمال «غروب» بدل «مغرب».

(٣) أصيل: العشيّ، أي الوقت بعد العصر إلى الغروب.

(٤) جمهرة: جَمْع.

والطُيورِ، ورَاحُوا يتهامَسُون فـيما بيـنَهم: «كيـفَ يـستطيعُ أن يُحَـدِّثَنا حَديثَ الأُلفَةِ والحُبِّ، في وقتٍ لا يعرفُ به شَيئًا عَنهما»؟

وانسَلَّ[1] جَمعُهُم بهُدُوءٍ. وتركُوه وَحِيدًا، وهُم له مُزدَرُونَ[2].

وانطرَحَ الراهبُ عَـشِيَّةَ ذلـكَ النهـارِ عـلى حَـصِيرَتِهِ، وعينَـاه في الأرضِ، وبَكَى بُكاءً مُرًّا، وضرَبَ بيدَيْه على صَدرِهِ[3].

***

(١) انسَلَّ: انطلقَ في استخفاء.

(٢) مزدرون: محتقِرون. من ازدرى ازدراءً.

(٣) العِبرة: لا يفهمُ الحبَّ إلا مَنْ يعيشه. ولا يعرفُ الشوقَ إلا مَنْ يكابِدُهُ.

النبيّ والغلام

لقيَ النبيُّ «شَاريا» ذاتَ يومٍ غُلامًا في حَديقةٍ، ومُذْ بَصُرَ بـه هـذا، أسرَع إليه وقالَ: «طابَ صباحُكَ يا سيِّدُ». ورَدَّ النبـيُّ تحيَّتَـهُ: «طـابَ صباحُك يا سَيِّدُ». وتابعَ الكلامَ بعدَ قليلٍ: «أراكَ وَحيدًا».

أجابهُ الغلامُ ضَاحِكًا فَرِحًا: «لَقَدْ مضَى عـليَّ وَقـتٌ طَويـلٌ وأنـا ضَائعٌ عَن مُربِّيتي. وهيَ تحسَبُ أنيِّ وراءَ هذهِ الوَشـائعِ[1]. ولكـنْ، ألا تَرَى أنَّني هُنا»؟ ثم حَدَّقَ إلى وَجهِ النبيِّ وقـالَ: «أنـتَ أيـضًا وَحِيـدٌ. ماذا فَعلتَ مع مُربِّيَتِكَ»؟

وردَّ النبيُّ قائِلاً: «ها! الأمرُ بينَنا مُختلِف. الحقيقةُ الدَامِغَةُ أنّنـي لا أسـتطيعُ أن أُضـيِّعَها أغلـبَ الأحيـانِ، ولكنِّي الآنَ، إذ أتيـتُ هـذهِ الحديقةَ، كانت هي تَسعَى في طلبي وراءَ الوشائعِ».

ضربَ الغُلامُ يَدًا بيدٍ وصَاحَ: «أنتَ إذن ضَائعٌ مِثلي. أليسَ حَسَنًا أن يكونَ الإنسانُ ضَائِعًا»؟ ثمَّ قال: «مَنْ أنتَ»؟

---

(١) الوشائع: مفردها وشيعة: ما يُجعل حول الحديقة من الشوك ونحوه منعًا للداخلين.

أجابهُ الرجلُ: «يدعُونَني النبيَّ شاريا، وأنتَ؟ قُل لي مَنْ أنتَ»؟

قالَ الغُلامُ: «أنا ذاتي وَحـدَها، ومَربِّيتـي تبحـثُ عنـيِّ، وهـيَ لا تعرِفُ أينَ أنا».

وحَدَّقَ النبيُّ إلى الفضاءِ قـائِلاً: «أنـا أيـضًا تهرَّبـتُ مِـن مُربِّيتـي لبُرهةٍ، ولكنَّها ستعثُرُ عليَّ خارِجًا».

وقال الغُلامُ: «وأنا أعرِفُ أنَّ مُربِّيتي ستَجِدُني خارِجًا أيضًا».

وسُمِعَ في تلك اللحظةِ صَوتُ امرَأةٍ تُنادِي الغُلامَ باسمِهِ، فقـال هذا: «انظُرْ! قلتُ لكَ إنَّها ستَجِدُني».

وفي تلكَ اللحظةِ أيضًا سُمِعَ صَوتٌ آخـرُ يقـولُ: «أيـن أنـتَ يـا شاريا»؟

وقال النبيُّ: «انظُرْ يا وَلَدِي! لقد وَجَدُوني أيضًا».

وأدارَ شاريا وجهَه للعَلاءِ، وأجابَ: «أنا هنا»[1].

***

---

(١) العِبرة: لا يمكن للإنسان أن يعيش خارج ذاته. وإلا ضاع كأنه في المتاهات والمفاوز.

اللــؤلــؤة

قالت محارةٌ[1] لمحارةٍ تُجاوِرُها: «إنّ بي ألمًا جِدَّ عَظيمٍ في دَاخلي. إنّه ثَقيلٌ ومُستَدِيرٌ، وأنا مَعهُ في بَلاءٍ وعَناء[2]».

وردَّتِ المحَارةُ الأُخرَى بانشراح فيه استِعلاءٌ: «الحمدُ للسمَواتِ والبِحارِ. لا أشعُرُ في سِرِّي بأيِّ أَلَمٍ. أَنا بخيرٍ وعافيةٍ دَاخِلاً وخَارِجًا».

ومرَّ في تلك اللحظةِ سَرَطانٌ مائيٌّ، وسَمِعَ المحارَتَيْنِ وهُما تتساقَطان الحديثَ[3]، وقال للتي هيَ بخيرٍ وعافيةٍ داخِلاً وخارجًا: «نعم، أنتِ بخيرٍ وعَافيةٍ. ولكنَّ الألمَ الذي تَحمِلُهُ جارتُكِ في داخِلها، إنما هو لؤلؤةٌ ذاتُ جمالٍ لا حَدَّ له»[4].

***

(١) محارة: صَدَفَة.

(٢) بلاءٌ وعناء: نَصَبٌ وتَعَبٌ.

(٣) تتساقطان الحديث: تتبادلان الحديث.

(٤) العِبرة: الألمُ مصدرُ الإبداع. وتمجيد الألم ميزة طبعت الرومنسيين. وربطُ الألم بالأبداع نجده في كل مؤلفات جبران.

جسد وروح

جلسَ رجلٌ وَامرأةٌ بجانِبِ شُبَّاكٍ يُطِلُّ على الرَبيعِ، وكانَت جَلْستُهما تَجعَلُهما جِدَّ مُتَقارِبَيْن، فقالتِ المرأةُ: «أنا أُحِبُّكَ؛ أنتَ جَميلٌ، وغَنيّ، وأنتَ أبَدًا ودائِمًا على جَانبٍ كَبيرٍ من الجَاذِبِيَّةِ».

وقالَ الرجلُ: «وأنا أُحِبُّك؛ أنتِ فِكرةٌ جميلةٌ، بل أنتِ شيٌ تَسامَى[1] عَن أن تنالَهُ يَدٌ. أنتِ أُغنيةٌ في حُلمي»!

غيرَ أنَّ المرأةَ أدارَتْ وَجهَها عنهُ وانفتَلَتْ[2] غَاضِبةً وقالَت: «أرجُوكَ أيُّها السَيِّدُ أن تُفَارِقَني منذُ اللَحظةِ، فأنا لستُ فِكرةً، ولا شَيئًا يطوفُ بِكَ في أحلامِكَ. أنا امرأةٌ وأوَدُّ أن تَشتاقَ إليَّ، أن تَشتَهِيَني. أنا زوجةٌ وأُمٌّ لأطفال لم يُولَدُوا بَعدُ».

وَافترَقا...

وقال الرجلُ في سِرِّهِ: «ها هو ذا حُلمٌ آخرُ تَبَدَّدَ منذُ الآن، وتحوَّلَ إلى ضَبابٍ».

---

(١) تسامى: تعالى.

(٢) انفتلت: مالت وتباعدت.

وقالتِ المرأةُ، وهي تَتَأمَّلُ وَحيدةً: «ما لي ولرَجُلٍ يحوِّلُني إلى ضَبابٍ وحُلمٍ»؟[1]

***

(١) العِبرة: المادة والروح لا يلتقيان. التباعد الحاصل بين جبران ومجتمعه، بين النبيِّ ومجتمعه. طريقتان في التفكير والرؤيا.

الملك

أحاطَ شعبُ مملكةِ صَادق بقَصرِ المَلكِ، وراحَتِ الجماهيرُ تصرُخُ ثائِرَةً عَليه. فنزلَ هذا من عَلياءِ قَصرِهِ، وقد حَمَلَ تاجَهُ بيَدٍ، وصَوْلجَانَهُ[1] باليَدِ الأُخرَى، واستَحْوَذَ[2] على الجَمَاهِيرِ حينَ أبصرَتْهُ صَمْتٌ مَهيبٌ وَقورٌ، ووقَفَ أمامَهم وقال: «أيُّها الأصدِقَاءُ، لستُم بعدَ الآنَ رَعاياي فهَا أنا ذا أتخلَّى عَن تَاجي وصَولجاني لكُم، وبِوُدِّي أن أكونَ واحِدًا مِنكُم. لستُ سِوى رَجُلٍ عَاديّ، غيرَ أني أودُّ كرجلٍ، أن أعمَلَ معكُم، ونَجْهدَ جَميعًا في أنْ يكونَ حظُّنا أوفى وأجمَلَ وأحسَنَ. لا حاجةَ بكم إلى مَلِكٍ! فَلْنَذْهَبْ إذن إلى الحُقُولِ والكُرومِ ونَشتَغِلْ يَدًا بيَدٍ. كلّ ما أريدُ مِنكُم أن تَدُلُّوني على الحَقلِ أو الكَرم الذي يَنبغي لي أن أذهبَ إليه، فكلُّ واحدٍ منكُمُ الآنَ ملكٌ».

وعَجَبَ الناسُ، وخَيَّمَ عَليهم الهُدُوءُ، فالملكُ الذي حَسِبُوهُ مَصدَرَ بَلائِهِم[3] تَخلّى الآنَ عن تَاجِهِ وصَولجانه وسَلَّمَهُما لهم، وأصبحَ

(١) صَولجانه: الصَولجان (كلمة فارسية): عصا معقوفة الرأس يحملها ذو السلطان للتدليل على سلطانه. ومنها صولجان الملك.

(٢) استحوذ: استولى.

(٣) بلائهم: مصائبهم، اختبارهم.

كأيٍّ واحِدٍ مِنهمْ.

ثم ذهبَ كلٌّ مِنهمُ في سَبيلِهِ، ومشىَ الملكُ مع أحدهمِ إلى بعضِ الحُقُول.

إلاّ أنَّ مملكةَ صادِق لم تَسِرْ أحسَنَ مما كانَتْ، وعادَتْ سُحُبُ السُخطِ[1] والاستِياءِ تَتَلبَّدُ وتَتَرَاكَمُ في آفاقِها وعَلى أرضِها، وعَاد الناسُ يَصرُخُونَ بأعلَى أصواتِهم في السَاحاتِ العَامَّة، أنّهمُ يُريدُونَ مَنْ يَحكُمُ بينَهم ويُديرُ أمورَهم، وصاحَ الشُيَّبُ[2] والشُبّانُ قائِلينَ بصَوتٍ واحِدٍ: «نريد مَلِكَنَا».

وبحثُوا عَن الملكِ فوَجدُوه يَكدَحُ في الحَقلِ، وَأتَوْا بـه إلى مَكانِهِ، وسَلَّمُوه تاجَه وصَولجانَهُ، وقَالوا: «الآنَ احْكُمْنا بعَزمٍ وعَدلٍ».

قال: «سأَحكُمُكُم في الحقيقةِ بعَزمٍ، وأدعُو آلهةَ السماءِ والأرضِ أن تُعينَني على أَن أحكُمَكُم أيضًا بعَدلٍ».

ثم جاءَهُ رجالٌ ونِساءٌ كَلَّمُوهُ في شأنِ والٍ أساءَ مُعامَلَتَهمُ، وَاتَّخذَ منهم عَبيدًا، وما كانَ ينظرُ إليهم إلا على أنّهمُ عَبيدٌ. فأمرَ الملكُ رَأسًا

(١) السُخط: ضد الرضا. وقيل إنه لا يكون إلا من الكبراء والعظماء.
(٢) الشُيَّب: مفرده شائب: المبيضّ الرأس. والمقصود: الشيوخ.

بإحضارِ الوَالي، حتّى إذا مَثُلَ[1] بينَ يديْه قالَ لـه: «إنَّ حيـاةَ إنسـانٍ في موازينِ الله تُعادِلُ حياةَ أيِّ إنسانٍ غيرِه. وما دمتَ لا تعرِفُ كيفَ تَزِنُ حَيَوَاتِ هؤلاءِ الـذين يعمَلُـونَ في حُقُولِـكَ وكُرومِـكَ، فقـد نَفَيْتُـكَ وعَليكَ أن تترُكَ هذه المَملكةَ إلى الأبد».

وفي اليَومِ التَالي جاءَتِ الملكَ جماعةٌ أُخرى وكَلَّمَتْهُ في شأنِ أمـيرةٍ قاسـيةِ القلبِ تُقيمُ وراءَ التِلال، وحَدَّثَتْهُ عنِ البُؤسِ الـذي نـشرَتْهُ في البلادِ، فجيءَ فَورًا بالأميرَةِ، وحَكَمَ عليها الملكُ أيضًا بـالنَفي قـائلاً: «إنّ هؤلاءِ الذينَ يَحرُثُونَ حُقولنَا ويبذُلُونَ العنايةَ بكُرومِنا أشرفُ منّـا نحـنُ الـذين نأكُـلُ الخُبـزَ الـذي يَـصنَعُون، ونَـشرَبُ الخمـرةَ التـي يَعصُرُونَ، وما دمـتِ لا تَعـرفين ذلـكَ، فـإنّ عليـكِ أن تَترُكـي هـذه الأرضَ وتَبتعِدِي عن هذه المملكةِ».

ثم جاءَهُ رِجالٌ ونِسوَةٌ أخبَرُوه أنَّ الأسـقُفَ يُـرغِمُهمُ عـلى حَمْـلِ الحِجَارةِ ونَحْتِها لإقامةِ الكَنيسةِ، ثـم لا يُعطِـيهم شـيئًا لقـاءَ عَملِهـم هذا، وهُم يعرِفُـون أنَّ خـزائنَ الأسـقُفِ مَـلأَى بالـذَهَبِ والفِـضَّةِ، ويَبيتُونَ مع ذلك على الجُوعِ لا يَجِدُونَ ما يقتَاتُونَ به.

---

(١) مَثُلَ بين يدَيْه: قام (وقف) منتصبًا.

ونُودِي على الأسقُف، وحينَ مَثَلَ بينَ يدَي الملكِ قال له: «هذا الصليبُ الذي تَحمِلُهُ على صَدرِكَ، إنّما يَعني إعطاءَ حياةٍ لقاءَ حَياةٍ. ولكنْ أنتَ أخَذْتَ حياةً من حياةٍ دونَ أن تُعطي شَيئًا. ولـذا، عليكَ أن تترُكَ هذه المملكةَ، وأن لا تعُودَ أبدًا».

وهكذا، مَرَّ شَهرٌ بأكمَلِهِ على الملكِ، وكُلَّ يومٍ يَأتيهِ فيه رجالٌ ونِساءٌ يُخبِرُونَه عن الأعباءِ التي أُلقِيتْ على كوَاهِلِهم[1]، وكانَ كلُّ يومٍ يَمُرُّ من ذلك الشَهرِ، يَشهَدُ ظالمًا أو أكثرَ يُنفَى مِنَ البِلادِ.

وعَجَبَ شعبُ صَادق، وامتَلأتِ القلوبُ غِبطَةً وفَرَحًا.

وذاتَ يومٍ أقبل الشُيَّبُ والشُبَّانُ وأحَاطوا ببرُجِ الملكِ ونادُوه فأتاهُم وهوَ يَحمِلُ تاجَه بيدٍ، وصَولجانَه بيَدٍ.

ثم خَاطبَهم قائِلاً: «والآنَ ماذا تُريدُونَ مِنيِّ؟ ها أنا أُعِيدُ إليكُمُ الأشياءَ التي رَغِبتُم إليَّ في حَمْلها».

ولكنَّهم صَاحُوا: «لا، لا، أنتَ مَلِكُنا الصَالِحُ، العادلُ. لقد جعلتَ أرضَنا نَظيفةً من الأفاعي، ورَدَدْتَها خُلْوًا مِن الذِئابِ، ونحنُ

(١) الأعباء: مفردها عبء: ثِقْلٌ، مسؤولية؛ كواهلهم: مفردها كاهل: كتف.

جِئنا نترنّمُ بحَمدِكَ والثناءِ عليكَ. التاجُ لكَ في جَلالٍ[1]، والصَولجانُ لكَ في مجدٍ».

أجَابَ الملكُ عِندَئذٍ قائِلاً: «لا، لستُ أنا. لستُ أنا. أنتُم أنفسُكم المَلِكَ. فأنتُم حينَ قَدَّرْتُم بي الضُعفَ وسُوءَ الحُكمِ، كنتُم أنفسُكم ضِعافًا سَيِّئي الأحكامِ. والآنَ إنما تَسيرُ البلادُ سَيرَها الحَسَنَ، لأنَّ تلك هي مَشيئتُكُم. ما أنا إلا فِكرةٌ في عُقُولِكُم جَميعِها، ولا وُجُودَ لي إلا في أعمالِكُم، ليسَ هُناكَ شَخصٌ اسمُه حَاكِم. المحكُومونَ وحدَهم هُمُ الذينَ وُجِدُوا ليَحكُمُوا أنفسَهم».

وعَادَ الملكُ فدَخَل برجَه مع تاجِهِ وصَولجانِهِ ومضَى الشُبَّانُ والشُيَّبُ كُلٌّ في سَبيله وهُم في غِبطةٍ وسُرور.

وكانَ كلُّ واحدٍ يَحسَبُ في نَفسهِ أنَّه ملكٌ يحمِلُ تاجًا بيَدٍ، وصَولجانًا بيَدٍ[2].

---

(١) جلال: وقار. وأراد بالذئاب والأفاعي الفاسدين المفسدين.

(٢) العِبرة: إنه واقع العلاقة بين الراعي والرعية. كما أنتم يُولَّى عليكم. انتقاد لاذع لطغيان السادة، وكأننا نسمع عمر بن الخطاب يصرخ: لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أُمَّهاتهم أحرارًا؟ كما نشهد انتقادًا لرجال الدين الذين يعاملون المؤمنين خلافًا لما أوصَى به السيد المسيح.

على الرمل

قال رجلٌ لآخَرَ: «كتبتُ بطَرَفِ حِذائي، عندَما ارتفَعَ مَدُّ البحرِ[1]، سَطرًا على الرمَلِ. ولا يزالُ الناسَ يَتَوقَّفُونَ عندَه ليقرأُوه، ويَحرِصُونَ على أن لا يَمْحُوهُ في المستقبَل شَيءٌ».

وقال الرجلُ الآخرُ: «وأنا كتبتُ أيضًا سَطرًا على الرَملِ، ولكن كانَ ذلكَ عندَما انخفَضَ المدُّ، وجاءَتْ أمواجُ البَحرِ فمَحَتْهُ، ولكنْ قُلْ لي: ماذا كتبتَ»؟

أجابَ الرجلُ الأولُ وقالَ: «كتبتُ هذا: «أنا مَنْ هو كائنٌ». وأنتَ ماذا كتبتَ»؟

وقال الآخر: «هذا ما كتبتُ: لستُ سِوى قطرةٍ مِن هذا الأُوقيانوسِ الكَبير»[2].

***

(١) مَدُّ البحر: ارتفاع مياهه إلى منسوب أعلى من سطحه العادي. وضدُّه، الجَزْر: انخفاض مياه البحر إلى منسوب أقل.

(٢) العِبرة: وحدة الوجود: الإنسان واحد، والكون واحد.

الهدايا الثلاث

كان في مدينةِ بشرّي مَرّةً، أميرٌ عَطوفٌ، محبوبٌ ومَقدَّرٌ من جَميعِ رعاياه[1].

غيرَ أنّه كان ثَمَّةَ رجلٌ فَقيرُ الحَالِ، مُعدَمٌ، جَعَلَ دَأبه ودَيدَنَهُ[2] ذمَّ الأميرِ، والتَشهيرَ به، وتَحرِيكَ لسانِه أبَدًا ودَائِمًا في التَشنيعِ عَليه.

وكان الأميرُ يعرِفُ ذلكَ، ولكنَّه ظَلَّ صَابِرًا لا يُحَرِّكُ في شأنِهِ سَاكِنًا.

وأخيرًا خَطَرَ ببالِهِ أَن يَضَعَ لَهُ حَدًّا، وأرسَلَ إليه في لَيلةٍ من لَيالي الشتاءِ خَادِمَه، وحَمَّلَهُ كيسَ طحينٍ، وعلبةَ صَابونٍ، وقَالبَ سُكَّرٍ.

قرعَ الخَادمُ بابَ الرجلِ وقالَ: «أرسَلَ إليكَ الأميرُ هذهِ الهَدَايا، علامةَ تذكارٍ، ودَليلَ رِعَايةٍ».

وشَعَرَ الرجلُ بالزَهوِ، وأخذَهُ العُجْبُ[3]، إذ حَسِبَ أنَّ الهدايا

---

(١) مقدَّرٌ من جميع رعاياه: كان من الأنسب القول: يُقدِّرُهُ جميعُ رعاياه. لأن اسم المفعول مصاغ من المجهول، فلا يجوز أن يبرز فاعله.

(٢) دأبه وديدنه: بمعنى واحد: عادته. معدم: لا يملك شيئًا.

(٣) العُجْب: الزهو، الكِبْرُ.

تكريمٌ مِنَ الأميرِ له، وذهبَ في نَشوَةٍ[١] الكِبرياءِ إلى المُطرانِ وأخبَرَهُ بما فَعَلَ الأميرُ قائِلا: «ألا تَرَى كيفَ أنَّ الأميرَ يطلبُ رِضَاي»؟

ولكنَّ المطرانَ قال: «إيه! ما أحكَمَ الأميرَ! وما أقلَّ فِطنَتَكَ! إنَّه يتكَلَّمُ بالرُّمُوزِ. الطَّحينُ لمعدَتِكَ الفارِغَةِ، والصَابونُ لقَذَارَةِ سَريرَتِكَ، والسُكَّرُ ليَحلُوَ لسانُكَ المُرُّ».

وأصبَحَ الرجلُ خَجِلاً منذُ ذلكَ اليوم، حتَّى من نفسِه، واشتَدَّتْ كَرَاهيتُهُ للأميرِ كما لم تكَن من قبلُ قَطُّ، وامتدَّتْ هذهِ الكراهيةُ للمُطرانِ الذي كَشَفَ لهُ طوِيَّةَ[٢] الأميرِ، وأطلعَهُ على مَقَاصِدِهِ.

إلاّ أنّه سَكَتَ بعدَ ذلك، ولم يتعرَّضْ للأميرِ بكَلمةٍ...[٣].

***

(١) نشوة: سَكْرة.

(٢) طويّة: نيَّة.

(٣) العِبرة: لسانُك حصانُك؛ إن صنتَه صانك، وإن خنتَه خانك وقد قال الشاعر:

لسانُك لا تذكُرْ به عورةَ امرئ
فكلُّكَ عوراتٌ، وللناسِ ألْسُنُ

ولا تَنْسَ قول الحكيم الآخر بأن العفَّة حليةُ الفَقر.

السِّلم والحرْب

كانَ مرَّةً ثلاثةُ كلابٍ في الشَمسِ يَتَدَفأُونَ ويتحَدَّثُونَ.

قالَ الكلبُ الأولُ بلَهجَةِ الحَالِمِ: «إنَّـهُ حَقًّـا لَعَجَبٌ أن تعـيشَ في هذا اليومِ عِيشةَ الكِلابِ. فَكِّرْ في هـذا اليُسرِ الـذي نُـسافِرُ بـه تحتَ البَحرِ، وفوقَ البَرِّ، وحتَّى في الجـوِّ. وتأمَّـلِ الاختراعـاتِ التـي أتَـتْ بالرَفاهِيَةِ للكِلابِ، وتمتَّعَتْ بها عيونُنا وآذانُنا وأنوفُنا».

وتكلَّم الكلبُ الثاني وقالَ: «إنّنا أكثرُ عنايـةً بـالفُنون. إنَّنـا نَنـبَحُ القمَرَ على نَحوٍ أكثرَ إيقاعًا[1] مما كانَ يفعلُ أجـدادُنا، وعنـدَما نُحـدِّقُ إلى أنفُسِنا في الماءِ، نَرى ملامِحَنا أنقَى من مَلامِحِ الأمسِ وأوضَحَ».

وتقدَّمَ الكلبُ الثالثُ وقال: «غير أنَّ الذي يَـشُوقُني[2] أكثـرَ مِـن كُلِّ ما يَشُوقُ، ويَخلُبُ لُبِّي، إنَّما هو هذا التفاهُمُ بينَ ممالِكِ الكِلابِ»!

ونظر الكلابُ الثلاثةُ إلى ما حَولَهم في تلكَ اللَحظةِ، وإذا بُمطارِدِ الكِلابِ يَقتَرِبُ. ياللْهَوْلِ!

---

(١) إيقاعًا: الإيقاع هو اتفاق الأصوات والألحان وتوقيعها في الغناء والعزف.

(٢) يشوقني: مضارع من شاق: داخَلَهُ الشوق والرغبة.

ووثبَ الثلاثةُ، وضَربُوا على غَير هُدًى[1] في الشَارع. وفيما كانوا يركُضُونَ، صاحَ الكلبُ الثالثُ فيهم قائِلاً: «اركضُوا باللهِ، من أجلِ حيَاتكُم، المدنيَّةُ وراءَنا تَتَعقَّبُنا»[2].

***

(١) وضربوا على غير هدى: وهربوا في كل اتّجاه.

(٢) تتعقّبنا: تلاحقنا للقبض علينا.

العِبرة: تفاهة المدنيَّة التي تهتمُّ بالقشور والمظاهر، وتُغفل الإنسان.

الراقصــة

جاءَتْ مرَّةً راقِصةٌ تُرافِقُها جَوقَتُها الموسِيقيَّةُ، إلى بَلاطِ أميرِ «بركاشا»، فأحسنَتِ الحاشيةُ استِقبَالَهَا، ورقصَتْ أمامَ الأميرِ على مُوسيقَى العُودِ والشبَّابَةِ والسَنطُور[1].

رقصَتْ رِقصةَ اللَهَبِ، ورِقصَةَ السُيوفِ والرِماحِ، ورِقصةَ النُجومِ والفَضاءِ، ثمَّ رقصَتْ أخيرًا رِقصةَ الأزهارِ في الرِياحِ.

ووقفَتْ بعد ذلك أمامَ العَرشِ، وانحنَتْ بجسمِها للأميرِ، فأمرَهَا هذا أن تَقترِبَ منه، وقالَ لها: «أيتُها المرأةُ الجميلةُ، يا ابنةَ النَعيمِ والفَرَحِ، من أينَ أتيتِ بفنِّكِ؟ وكيفَ أتيحَ لكِ أن تقُودِي عناصرَ الطبيعةِ وتُصرِّفيها على إيقاعَاتِكِ وقَوافيكِ»؟

انحنَتِ الراقصةُ ثانيةً أمامَ الأميرِ، وأجابَتْ: «أنا لا أعرفُ، يا صاحبَ السُمُوِّ والنِعمةِ، جوابَ أَسئلتِكَ. كلُّ ما أَعرِفُهُ هو هذا: رُوحُ الفيلسوفِ تقيمُ في رأسِه، وروحُ الشَاعرِ في قَلبِهِ، وروحُ المُغنِّي تعيشُ في حنجرتِهِ، أما رُوحُ الراقصةِ فإنها تَقطُنُ في جَسَدِها كُلِّه»[2].

---

(١) السنطور: آلة طرب وترية تشبه القانون؛ الشبَّابة: مزمار من القصب.

(٢) العِبرة: المرأة والطبيعة. كلٌّ مرآة للآخر. وقد استغرق الرومنسيون كثيرًا في الكلام على هذا الوثاق الشديد بين المرأة والطبيعة.

الملاكان الحارسان

التقىَ ذاتَ مساءٍ ملاكانِ عندَ بَوَّابةِ المدينةِ، وتبادَلا التَحيَّةَ، وراحَا يَتحدَّثانِ.

قال أحدُهما: «ماذا تعملُ في هذهِ الأيَّامِ، وما هي المُهمَّةُ التي أُسنِدَتْ إليكَ»؟

أجابَ الآخرُ: «أُسنِدَتْ إليَّ حراسةُ إنسانٍ سقَطَ، وهو يعيشُ في الوادِي، وكانَ خاطِئًا كَبيرًا، هوى إلى أحطِّ الدركاتِ[1]. واسمَحْ لي أن أُؤكِّدَ لكَ أنّه واجبٌ ضَخْمٌ، خَطيرٌ، أُكابِدُ[2] منه عَناءً كبيرًا».

قال الملاكُ الأولُ: «تلكَ مُهِمَّةٌ يسيرةٌ، فكثيرًا ما تعرّفتُ إلى خَاطِئِينَ وكُنتُ حارِسًا لهم أكثَرَ مِن مَرَّةٍ. وقد أُسنِدَ إليَّ أخيرًا حِراسَةُ قدّيسٍ طيّبِ القلبِ والنفسِ يعيشُ في ظِلِّ خَيمةٍ من أغصانِ الشَجرِ، مُنقطِعًا عن الناسِ، مُعتزِلاً، بعيدًا. وإني لأؤكِّدُ لكَ أنَّ ذلك عَمَلٌ في منتهى الصُعوبةِ والدِقَّةِ».

---

(١) الدركات: ضد الدرجات. الأولى لاعتبار النزول؛ والثانية لاعتبار الصعود.

(٢) أكابِدُ: أعَاني، أُقاسي.

قال الملاكُ الثاني: «ليسَ هذا سِوى ادّعاءٍ مَحضٍ[1]، إذ كيفَ يمكنُ أن تكونَ حِراسةُ قِدّيسٍ أصعبَ من حِراسةِ خَاطئٍ؟».

أجابَهُ الآخرُ: «أيّةُ قِحَةٍ[2] هذه أن تَحسَبَني مُدّعيًا؟ أنا لم أُقرِّرْ سِوى الحقيقةِ. ويبدُو لي أنّكَ أنتَ المدَّعي»!

وهنا أخذَ الملاكانِ في شِجارٍ وعِراكٍ، بَدأَ بالكَلامِ، وانتهى بالقَبضَاتِ[3] والأجنِحَةِ.

وفيما كانَا يَتعاركانِ مَرَّ بِهِما ملاكٌ أَعلى، فوقَفَ وقالَ: «لِمَ تتنازَعانِ؟ وما هُو الأمرُ الذي جَرَّكُما إلى هذا العِراكِ كُلِّه؟ ألا تعلَمانِ أنَّ العِراكَ بينَ الحَرَسِ مَن الملائكةِ أبعدُ ما يكونُ عن اللياقةِ، ولا سِيَّما عندَ بَوَّابةِ المَدينةِ؟ أَخبِراني، ما هو الخلافُ بينكُما»؟

وراحَ الملاكانِ يتكلَّمانِ معًا في آنٍ واحِدٍ، وكُلٌّ يَدَّعي أنَّ العمَلَ الذي وُكِلَ إليه أصعبُ من عَمَلِ زميلِهِ، وأنّه هو الذي يَستَحِقُّ الإقرارَ الأكبرَ بفَضلِهِ.

---

(١) إدِّعاء محض: زعم خاطئ لا شكَّ فيه. المحض: الخالص الكامل. لا مثنى له ولا جمع.

(٢) قِحة: لغة من الوقاحة. وبالمعنى نفسه.

(٣) القبضات: مفردها القبضة: ملء الكف.

هزَّ الملاكُ الأعلى رأسَه وَأَمْعَنَ[1] يتأمّلُ...

أخيرًا قالَ: «لا أستطيعُ يا صَاحِبَيَّ أن أقولَ لكُما الآن أيُّكُما أحقُّ بالشَرَفِ الأكبرِ والمكافأةِ الأُولى، ولكنْ ما دامتِ السُلطةُ ممنوحةً لي، فإنِّي أُعطي لكلِّ مِنكُما عَمَلَ الآخر، حِفاظًا على السَلامةِ وتأمينًا للحِراسَة، وسيكونُ كلٌّ منكُما مُغتَبِطًا[2] وهو الذي يُصِرُّ على أنَّ واجبَ الآخرِ أيسرُ[3] من واجبِ زميلِهِ. اذهبَا الآنَ، وَلْيَسْعَدْ كُلٌّ منكُما بالعَملِ الذي أُسنِدَ إليه».

ومضَى الملاكانِ ينفّذانِ الأمرَ الذي وُجِّهَ إليهما، غيرَ أنّ كلَّ واحدٍ منهُما راحَ ينظُرُ وراءَه إلى الملاكِ الأعلَى، شَزْرًا[4]، ويقُول في سِرِّه: «آهٍ من هؤلاءِ الملائكةَ، أعسرَ فأعسرَ، يَومًا بعدَ يوم».

ولكنَّ الملاكَ الأعلى وقفَ هناك، وراحَ يُحدِّثُ نفسَه، ويقولُ في سِرِّه: «علينا، في الواقعِ، أن نكونَ حَذِرِينَ، وأن نقيمَ حَرَسًا على الملائكةِ الأعلَيْن»[5].

(١) أمعن: أبعدَ وبالغَ واستغرقَ.
(٢) مغتبطًا: فرِحًا، مسرورًا.
(٣) أَيسرُ: أهون. ضد أعسر. وأعسرُ: أصعب.
(٤) ينظر شزرًا: ينظر إليه بجانب من عينه مع إعراضٍ أو غضب.
(٥) الأعلين: جمع أعلى.

التمثـــــال

كان ثَمَّةَ رجلٌ يعيشُ فوقَ الرَوابي، ولديهِ تِمثالٌ نحتَهُ أحدُ الأساتِذَةِ الأقدَمِينَ، وقد أُلقِي مَطروحًا على الأرضِ أمامَ بابه، فلم يكُن يُعيرُه أدنَى اهتِمامٍ[1].

ومرَّ ذاتَ يوم بمنزِلِهِ رجلٌ مِنَ المدينةِ، كانَ ذا بَصَرٍ[2] ومَعرِفَةٍ، ومُذ شاهَدَ التِمثالَ، سَأَلَ عن صَاحِبِهِ يُريدُ شِراءَهُ.

ضَحِكَ صاحبُ التِمثالِ وقالَ: «أفأنتَ ترجُو مَنْ يَوَدُّ أن يَجِدَ شَارِيًا لهذَا الحَجرِ القَذِرِ الكَاسِدِ»[3]؟

قال ابنُ المدينةِ: «أُعطِيكَ هذه القِطعَةَ من الفِضَّةِ لِقَاءَهُ».

ودَهِسّ الرجُل وفَرِحَ.

ونَقَلَ[4] التِمثالَ إلى المدينةِ عَلى ظَهر فِيلٍ. وذَهَبَ رجلُ الرَوابِي إلى

---

(١) يُعيره أدنى اهتمام: يوليه أقلَّ اهتمام.
(٢) كان ذا بَصَرٍ: أيّ إذا رأى شيئًا أدرك حقيقته وقيمته.
(٣) الحجر الكاسد: الذي لم يجد شاريًا له.
(٤) ابن المدنية. مفهوم من السياق.

المدينةِ في زيادةٍ، بعد عِدَّةِ أشهُرٍ. وفيما هو يَجُوبُ شوارِعها، وَقَعَ نظـرُه على جُمهورٍ من الناسَ أمامَ دُكَّانٍ، وفِيهم رَجُلٌ يصرُخُ بـصَوتٍ عـالٍ: «تعالَوا وادخُلوا، فها هنا أجمَلُ وأعجَبُ تِمثالٍ في العالَمَ كُلِّه. يمكِـنُكُم بقِطعتَيْنِ فقط من الفِضَّةِ أن تُـشاهِدُوا أبـدَعَ مـا صَـنَعَ أُسـتاذٌ في فَـنِّ النَحتِ».

وعِندَ ذاك، دَفَعَ رجلُ الروابي قِطعَتَيْنِ من الفِضَّة، ودخَلَ الـدُكّانَ ليشهَدَ التِمثال، فإذا هو ذاكَ الذي كان قـد باعَـهُ بقِطعَـةٍ واحِـدَةٍ مـن الفِضَّةِ[1]!

***

(١) العِبرة: المفارقات الغريبة في الحياة. إنها مضحكة مبكية. والفن غريب عـن النـاس، والنـاس في غربة عن الفن. والفنان الحقيقي غريب بين أهله، غريب في مجتمعه، غريـب في عـصره. ولكـن ثمة أذكياء يستطيعون استغلال الفن لمنافع مادية، يكون الفنان بعيدًا عنها.

المبادلـــة

لقيَ شاعرٌ فقيرٌ مرَّةً غنيًّا عندَ مُلتقَى طُرُقٍ، ودارَ بينَهما حديثٌ طويلٌ. وكانَ كلُّ مَا قالاه يَنِمُّ[1] عن استياءٍ وسُخْطٍ، ولا شيءَ سِوى سُخطٍ واستِياءٍ.

ومَرَّ آنذاكَ ملاكُ الطريق، ووَضَعَ يَدَهُ على كَتِفِ الرجُلَيْنِ، وإذا بُمعجِزةٍ تَتَحقَّقُ: لقد انتقلَتْ أملاكُ كُلٍّ مِنهُما للآخَرِ.

ثم انصرَفَا، وكانَ أغربَ ما جَرَى لهُما أنَّ الشاعِرَ نظَرَ فلم يَجِدْ في يَدِهِ شَيئًا سِوى رَملٍ جَافٍّ مُتَحَرِّكٍ، والغَبيَّ أغمَضَ عَينَيه ولم يَشْعُرْ بشيءٍ سِوى غيمةٍ متحرّكةٍ في قلبِهِ[2]!

***

---

(١) ينمُّ: يُظهر، يُبيِّن.

(٢) العِبرة: الحياة لا تُرضي أحدًا. وما من أحد، بالتالي، راضٍ بما هو فيه، شاعرًا فقيرًا كان أم غنيًّا غبيًّا. ولعله حُلم جبران أن يجمع بين الفن والثروة، كما يقول د. إميل كبا في تعليقه على هذه القصة.

حبٌّ وبُغض

قالتِ امرأةٌ لرجُلٍ: «أنا أُحِبُّكَ». وقالَ الرجُلُ: «إنَّما أَكونُ أهلاً لحُبِّكِ هذا، في قَلبي».

وقالتِ المَرأةُ: «ألا تُحِبُّني أنتَ»؟

وَحَدَّقَ الرجُلُ إليها مَليًّا ولم يَقُلْ شَيئًا.

عندَ ذاك صَرَخَتِ المَرأةُ بصَوتٍ عَالٍ: «أنا أكرَهُكَ».

وقال الرجُلُ: «إنَّما أكونُ إذن أَهلاً لبُغضِكِ، في قلبي أيضًا»[1].

***

---

(١) العِبرة: الثابت والمتحوّل في العواطف البشرية. انسياق الإنسان لما يظهر من العواطف لا يفسِّر حقيقتها. إنما لا يدرك كنهها الحقيقي إلا مَنْ يعيش الآخر من الداخل.

أحــــــلام

رأى رجلٌ حُلمًا في نَومِهِ، وعندَما أفاقَ ذَهَبَ إلى عَرَّافِهِ[1]، وطلبَ إليه أن يُفَسِّرَ لهُ رُؤياهُ.

قال العَرَّافُ للرَجُلِ: «تعالَ إليّ مع الأحلامِ التي تَراها في يَقظتِك، وسأُخبِرُكَ عن مَعناها، أمّا الأحلامُ التي تَراها في نَومِكَ فإنها مِمَّا لا تنالُه مَعرفتي، ولا يُدرِكُهُ خيالي»[2].

***

(١) العرَّاف: الذي يفسِّر الأحلام.

(٢) العِبرة: ما يعيشُه الإنسان في وعيه إنما هو الحقيقة الكبرى، والنوم هو انقطاع عن هـذه الحقيقـة. هي نظرة جبرانية خاصة تعتبر الأحلام هباء منثورًا، وأحلام اليقظة عنده هي التوق الأكبر.

المجنـــــــون

كان ذلك في حَديقةِ «المارستان»[1]: لقيتُ شَـابًّا شـاحِبَ الوَجـهِ، رائعَ الطَلعةِ، يُثيرُ العَجَبَ.

وجلستُ بجانِبِهِ على المَقعدِ وقلتُ: «لِمَ أنتَ هنا»؟

نظرَ إليَّ بدَهشةٍ وقالَ: «ذاكَ سُؤالٌ غيرُ لائِقٍ، ولكنِّي أُجيـبُ عَنـه مع ذلك: أرادَ أبي أن يجعلَ مِنِّـي نـسخةً جَديـدةً عَنـه، وكـذلك أراد عَمِّي. وشاءَتْ وَالدَتي أن أكونَ صـورةً عـن أبيهـا الـشَهيرِ، وأُختـي شاءَتْ أن تجعَلَ لي مِن زَوجِها البَحَّارِ المَثَلَ الأكمَلَ الذي يَنبغـي لي أن أقتَديَ به. وأَخي حَسِبَ أنّ عَليّ أن أَكُون مِثلَه، بَطلاً رِياضيًّا مَرمُوقًا.

وكذلكَ هو شأنُ أساتِذتي، مِـنَ الـدُكتور في الفَلـسَفَةِ، إلى أُسـتاذِ الموسِيقَى، إلى المناطِقَةِ[2]، قَرَّرُوا جَميعُهم، وكُلُّ واحِدٍ منهم أرادَني عـلى أن أَكُون انعِكاسًا لوجَهِهِ في مِرآةٍ.

ولذلكَ، جئتُ إلى هـذا المكـانِ. وَإنّي لأجـدُه أَرَدَّ بالـسَلامةِ عَـليَّ

(١) المارستان: كلمة فارسية تعني دار المرضى. واللفظة تطلق عادة على دار المجانين.

(٢) المناطقة: جمع منطيق. أهل البلاغة والمنطق.

والعَافية. فأنا أستطيعُ به أن أُكونَ إيَّايَ، لا غَيري، عَلى الأقَلّ».

ثم دارَ فَجأةً نَحوي، وقال: «ولكِنْ قُلْ لي: هـل سَـاقَتْكَ إلى هـذا المكانِ أيضًا نَصَائِحُ الآخرينَ ورغبتُهم في تَثقِيفِكَ»؟

أجبته: «لا، أنا زَائِرٌ».

قالت: أنت إذن وَاحدٌ من أولئِـكَ الـذين يَعيـشُون في المارسـتانِ القائمِ وراءَ الجانبِ الآخرِ من الجِدَارِ»[1].

***

(١) العِبرة: الحياة مستشفى مجانين. والناس فيها يحسبون أنفسهم عقلاء. والعاقل الوحيد هو مجنـون في ناظرهم. ومن أراد أن يعيش ذاته خرج عن مألوف مفـاهيمهم وأضـحى في نظـرهم مجنونًـا يُحْجَر عليه.

الضفــادع

قالت ضِفدَعةٌ لرَفيقَتِها، في يومٍ من أيّامِ الصَيفِ: «أنـا أخـشَى أن نُزعِجَ أُولئِكَ القومَ الـذينَ يُقيمُـونَ في ذلـك البيـتِ، عَـلى الـشَاطئِ، بأغانِينا اللَيليَّةِ».

أجابتْ رفيقتُها قائِلةً: «حَسَنٌ، ولكنْ، ألا تَجِدينَ أنهم يُعَكِّـرونَ صَمتَنا أثناءَ النهارِ بثَرثَرَتِهم»؟

قالتِ الضِفدَعةُ: «يجبُ ألا يَغرُبَ عـن بَالِنـا[1] أَنَّنـا نُكثِـرُ الغِنـاءَ، ونَغلو[2] في الإكثارِ منه، أثناءَ اللَيلِ».

قالَـتْ رَفيقتُهـا: «ويجـبُ أن لا يغـرُبَ عـن بالِنـا أَنَّهـم يُكثِـرونَ الضَجِيجَ والثَرثرةَ، ويُغالُون في اللَغَطِ[3] أثناءَ النهارِ».

قالت الـضِفدَعةُ: «مـا القـولُ في فَحـلِ الـضَفادعِ الـذي يُـزعِجُ الجيرانَ كُلَّهم بهَديرِهِ المُحَرَّمِ»؟

---

(١) يغرب عن بالنا: يخفى عن بالنا، يغيب عنه.

(٢) نغلو: نبالغ.

(٣) اللَغَط: الصوت والجلبة، أو أصوات مُبهمة لا تُفهَمُ.

أجابَتْ رفيقتُها: «نَعم! وما تَقولينَ في السِياسيِّ والكـاهِنِ والعَـالِمِ الذين يَرتَادُونَ هذا الشَاطئَ ويملأونَ الهواءَ بضَوضَاءَ لا رَويَّ لها ولا إيقاعًا»؟[1]

قالتِ الـضفدعةُ: «حَسَنٌ، فَلْنكُن أفـضلَ مـن هـذِهِ الكائنـاتِ البَشريَّةِ. لِنَهْدَأْ في الليلِ، وَلْنحتفِظْ بأغانِينا في قُلُوبِنـا، حتَّـى وإن تـاقَ القمرُ إلى أنغامِنا، وتطلَّعَتِ النُجُومُ إلى إيقاعِنا، لِنَصْمُتْ ليلةً أو لَيلتَيْنِ على الأقلِّ، وحتَّى ثلاثَ ليالٍ مُتَوالِياتٍ».

قالَتْ رفيقتُها: «حَسَنٌ جِدًّا، أنا أُوافِقُ. وسَنَرى مـا سَـيَنْجُمُ عـن طِيبةِ قلبِكِ».

ومرَّتْ تلكَ الليلةُ، والضفادعُ صامِتةٌ، وصمَتَتْ أيـضًا في الليلـةِ التي تَلَتْ، ثمَّ في الليلةِ الثالثةِ.

وكان أغربَ ما جَرَى أنَّ المرأةَ الثرثارةَ التي كانت تُقيمُ في البيـتِ القائمِ بجانـبِ البُحـيرةِ، نَزَلَـتْ في اليـوم الثالـثِ تتنـاولُ فُطُورَهـا، وصَاحَتْ لِزَوْجِها: «مَرَّتِ الليالي الثلاثُ الماضيةُ لم أَذُقْ خِلالها طعـمَ

---

(١) لا رويَّ لها ولا إيقاعًا: لا ضابط لها وغير مفهومة.

النَومِ، لقد كنتُ أَغفُو على نَقيقِ الضَفادِعِ، ولا بُدَّ من أن يكونَ هنالك شيءٌ قد حَدَثَ، فإني لم أسمَعْ لها صَوتًا منذُ ليالٍ ثلاثٍ، ويكادُ جُنوني يُجَنُّ[1] مِنَ الأرَقِ».

سَمِعَتِ الضفدعةُ هذا الكلامَ، ودارَتْ نحوَ رَفيقَتِها، وقالت وهي تغمزُ بطَرْفِ عَينها: «ونحنُ كِدنا نُجَنُّ مِن الصَمتِ. ألم نَكَدْ نُجَنُّ»؟

أجابَتْ رفيقتُها: «أجَلْ، كانَ صمتُ الليلِ ثَقيلاً عَلينا. وقد أصبَحَ في مُستطاعي الآنَ أن أُدرِكَ أن لا حاجَةَ بنا إلى الانقِطاعِ عن الغِناءِ، تَرْفيهًا عن أولئِكَ الذين يملأُونَ فراغَ نُفُوسِهم بالضَجيجِ»[2].

***

(١) جُنَّ جنوني: ثارت ثائرتي.

(٢) العِبرة: في الحضارة الإنسانية عيوب وثغرات لا تسَدُّ. والبشر تافهون في ضجيجهم لا تؤدي جلبتهم إلى نتيجة. قد يسكُتُ الحيوان عن الضجيج ولا يسكت البشر.

الشرائع والتشريع

كانَ في العُصورِ السَالفةِ مَلِكٌ كَبيرٌ، وكانَ هذا الملكُ حَكيمًا، وقَد رَغِبَ في سَنِّ الشَرائِعِ[1] لرعَاياهُ.

ودَعا بألفِ حَكيمٍ اختارَهُم من ألفِ قَبيلةٍ، وطلبَ إليهم سَنَّ القوانينِ ليعمَلَ بها في المملَكَةِ الكَبيرَةِ، المترامِيَةِ الأطرافِ.

وعندَما وُضِعَتِ القوانينُ المكتُوبَةُ على الرَقِّ[2] ـ وعددُها ألفٌ ـ أمامَ الملكِ وأخَذَ في قِراءَتِها، بَكَى في سِرِّهِ بُكاءً مُرًّا، إذ لم يكُن يعرِفُ أنَّ في مملكَتِهِ ألفَ شكلٍ للجَريمة.

ثم دَعا بكَاتِبِهِ، وراحَ يُملي عَليه بنفسِه الشَرائِعَ، والابتسامةُ تعلُو شَفَتَيْه، حتَّى إذا انتَهى لم يَتَجاوَزْ عددُ القوانينِ التي وَضَعَها السبعَة.

وتركَهُ الحُكَماءُ الألفُ وهم غَاضِبُونَ وعادُوا إلى قَبائِلِهم ومَعَهُمُ الشرائعُ التي سَنُّوها، وراحَتْ كُلُّ قبيلةٍ تأخذُ بالشريعةِ التي وَضَعها حُكَماؤُها.

---

(١) سنَّ الشرائع: وضعها.

(٢) الرَقّ: جلد رقيق يُكتب فيه.

لذلك، كانَ لديهم ألفُ شريعةٍ حتَّى يومِنا هذا.

إنّه بلدٌ كَبير، ولكنَّ لدَيـه ألـفَ سِـجنٍ، وهـذهِ الـسجونُ مـلأَى بِرجال ونِساءٍ من الخَارجِينَ على الألفِ شَريعةٍ.

إنه في الحقيقةِ بلدٌ كَبير، ولكـنَّ أهلَـهُ تحـدَّرُوا مـن ألـفِ مُـشترعٍ وملكٍ حكيمٍ واحدٍ[1].

***

(١) العِبرة: نَقْدٌ للشرائع التي لا تنبع من روح العدالة. العدالة نسبيّة. كـلٌّ ينظـر إليهـا مـن منظـار خاص مختلف. فتباينت لذلك الشرائع. أما الحكيم العـادل فهـو شـموليٌّ في نظرتـه، عـادل في حكمه. وكم نحن بحاجة إلى مثل هذا الحكيم.



أمس، واليوم، وغدًا

قلتُ لصَدِيقي: «هل تَرَى إلى اتِّكَائِها على ذِرَاعِ ذلكَ الرجُلِ؟ لقَد كانَتْ حتَّى الأمسِ تَتَّكِئُ على ذِرَاعي».

قالَ صَدِيقي: «وغَدًا تَتْكِئُ على ذِرَاعي».

قلتُ: «انظُرْ إلى جُلُوسِها بجانِبِهِ! لقد كَانَتْ حتَّى الأمسِ تَجلِسُ هَكَذا بجَانبي».

أجابَ: «غدًا ستَجلِسُ بجانبي».

قلتُ: «انظُرْ! إنها تشرَبُ الخَمرَةَ من كَأسِهِ، وأمسِ كانت تشرَبُها مِن كَأسِي».

قال: «غَدًا تشرَبُها مِن كأسِي».

قلتُ: «انظُرْ كيفَ تُحدِّقُ إليه بحَنانٍ، وعَينَينِ مُستَسلمَتَيْنِ. كانَتْ حتَّى أمسِ تُحَدِّقُ هكَذا إليَّ».

قال صَديقي: «يُمكِنُ أن تُحدِّقَ إليَّ هكَذا غدًا».

قلتُ: «ألا تَسمَعُها الآنَ وهي تُتَمْتِمُ بتَرانيمِ الحُبِّ في أُذُنَيْه؟ هذه الترانيمُ ذاتُها هي التي كانَت تُتَمْتِمُها حتَّى الأمسِ في أُذُنيّ».



قالَ: «وغَدًا ستهمِسُ بها في أُذنيَّ».

قلتُ: «انظُرْ! إنها تُعَانِقُهُ. كانت إلى أمسِ فقط تُعانِقُني».

قال: «غَدًا ستُعانِقُني أيضًا».

قلتُ عندئذٍ: «يا لها مِنِ امرَأةٍ غَريبة»!

ولكنَّه أجابني: «إنها شبيهةٌ بالحياةِ يَتمتَّعُ بها كلُّ الرجال، وشبيهةٌ بالموتِ تقهَرُ كلَّ الرجالِ، وشبيهةٌ بالأبديةِ تَحتَضِنُ كلَّ الرجالِ»[1].

***

---

(١) العِبرة: قد تكون الإجابة الأخيرة من القصة هي العِبرة التي تتضمَّنُها الحكاية: المرأة كالحياة، كالموت، كالأبدية.

الفيلسوف والإسكافي

جاءَ مَرَّةً فيلسوفٌ بحِذَاءٍ مُمَزَّقٍ، إلى دُكَّانِ إسكَافِيٍّ، وقالَ له: «أرجوُ إصلاحَ حِذائي».

قالَ الإسكافيُّ: «أنا أُصلِحُ الآنَ حِذَاءَ رَجُلٍ آخَرَ، وَلَديّ أحذيةٌ أُخرى، مُضْطَرٌّ إلى تَرقِيعِها، قَبلَ أن يَصِلَ الدورُ لِحِذَائِكَ. غيرَ أنَّ في إمكَانِكَ أنْ تَترُكَهُ هنا، وتلبِسَ هذا الحِذَاءَ اليومَ، وغَدًا تأتي وتلبِسُ حِذَاءَكَ بعدَ أن أكونَ قد أصلَحْتُه».

اغتاظَ الفيلسوفُ وقالَ: «أنا لا ألبِسُ حِذاءً ليسَ لي».

قال الإسكافيُّ: «حَسَنٌ إذن، أَحقًّا أنتَ فَيلسوفٌ ولا تستطيعُ أن تَضعَ قَدَمَيْكَ في حِذَاءِ رَجُلٍ آخرَ؟ هناكَ في أوَّلِ هذا الشَارعِ نفسِه إسكافيٌّ آخرُ، يفهَمُ الفلاسِفَةَ أكثرَ مني، اذهَبْ إليهِ للقيامِ بعَمليَّةِ الإصلاَحِ»[1].

***

(١) العِبرة: لا يمكن للإنسان أن يكون غير نفسِه، وأن يلبِسَ ثوبًا غير ثوبه. قد تكون هذه القصة نقدًا لاذعًا للفلسفة التي تكون أسيرة نفسها، وقد تكون نقدًا للتحجُّر الذي يتميَّز به البعض.

بنـاة الجسـور

أقيمَ في أنطاكِية[1]، حيثُ يَجرِي نَهرُ العَـاصي[2] ليـصُبَّ في البَحـرِ، جِسرٌ يَصِلُ نِصفَ المدينةِ بنِصفِها الآخرِ، وقَد بُني من حِجَارَةٍ عَريضَةٍ نُقِلَتْ مِنَ الرَوَابي على ظُهُورِ بِغَالِ أنطاكية.

وعنـدما انتَهَـى الجِـسرُ[3]، نُقِـشَ عـلى أحـدِ أعمِدَتِـهِ بالأغريقيَّـةِ والآراميَّةِ: «بَنَى هذا الجسرَ الملكُ أنطيوخُوس الثاني»[4].

وكان الناسُ جَميعُهم يَعبُرُونَ من ضِفَّةٍ إلى ضِفَّةٍ فوقَ الجسرِ الذي وَصَلَ ما انقَطَعَ بينَ نِصفَي المدِينَةِ.

وذاتَ مساءٍ نَزَلَ شابٌّ يَحسَبُهُ البعضُ مجنُونًا إلى حَدٍّ مـا، واسـتَمَرَّ يَنزِلُ حتَّى بَلَغَ العَمُودَ الذي نُقِـشَتْ عَليـهِ تلـكَ الكلـماتُ، وغَطَّاهـا

(١) أنطاكية: مدينة على العاصي شهيرة بمتحفها ومركزها الزراعي أسّسها سلوقس الأول نيكـاتور سنة ٣٠٨ ق.م.

(٢) نهر العاصي: ينبع من لُبنان (مغارة الراهب واللبوة)، يمر في الأراضي السورية (حمـص وحمـاة) ويصل إلى أنطاكية وينتهي في خايج السويدية. طوله ٥٧٠ كم.

(٣) انتهى الجسرُ: المقصود: تَمَّ بناؤه.

(٤) انطيوخوس الثاني: من الملوك السلوقيين في سوريا (٢٦١ ـ٢٤٦ ق.م). وقد يكـون مـن ملـوك الكوماجينا (شمال شرقي سوريا وشرقي آسيا الصغرى).

بالفَحم، وكَتَبَ فَوقَها: «حِجَارةُ هذا الجِسرِ جِيءَ بها مِنَ الروابي عَلى ظُهورُ البِغَالِ. وانتُم إذ تمُرُّونَ فوقَه جِيئَةً وذِهَابًا، إنما تَركَبُون ظُهُورَ بِغَالِ أنطاكية بُناةِ هذا الجِسرِ».

وعندَما قَرأ الناسُ مَا كَتَبَهُ الشابُّ، ضَحِكَ بعضُهم، وتَعجَّبَ آخرُونَ. وفيهم مَنْ قال: «ها! نَعم، إنَّا لنَعرِفُ الذي فَعَلَ ذلكَ. أمَا هو ذلكَ المجنونُ الصَغِيرُ»؟

ولكنَّ بَغلاً قال، وهو يَضحَكُ، لِبغلٍ آخرَ:

«ألا تَتَذَكَّرُ أننا حَمَلْنا تلكَ الأحجَارَ؟ ومَع ذلكَ، لا يزالُ هُناك مَنْ يقولُ حتَّى الآن، إنَّ الملكَ أنطيوخُوس هو الذي بَنَى الجِسرَ»[1]!

***

(١) العِبرة: نقد جارح للإقطاع السياسي الذي يُنزِلُ الإنسان منزلةً دون منزلة الحيوان، ويجرِّد الإنسان من كل فضل في بناء مظاهر العمران.

حقــل زا آد

لَقِيَ مُسافرٌ عَلى طريقِ زا آد، رَجُـلاً كـانَ يُقـيمُ في قريـةٍ مُجـاوِرَةٍ، فسأَلَ المسَافرُ الرجلَ، وهوَ يُشيرُ بيدِهِ إلى حَقلٍ وَاسِـع: «ألم يكُـن هـذا الحَقلُ ساحةَ القتالِ الذي انتصَرَ به الملكُ أهلامُ على أَعدائِهِ»؟

أجابَ الرجُلُ قائِلاً: «هذا لم يَكُن قَطُّ سـاحةَ قِتـالٍ، وإنـما كانَـتْ تَقُومُ هناكَ مَدِينَةُ زاآد الكبيرةُ، وقد أُحرِقَتْ حتَّـى تحَوَّلَـتْ إلى رَمـادٍ، غيرَ أنها أصبَحَتِ الآنَ حَقلاً خصيبًا. أمَا هِي كَذلك»؟

وانصرَف كلٌّ مِنَ الرجُلِ والمسَافرِ إلى شَأنه.

وقبلَ أن يَقطَعَ المسافرُ نصفَ مِيلٍ بَعدُ، لقيَ رجُـلاً آخـرَ، وأشـارَ بيدِهِ إلى الحَقلِ مَرَّةً ثانيةً، وقالَ: «أهذا هُوَ المكانُ الذي كانَت تقومُ فيـه مَدينةُ زاآد الكُبرى»؟

قال الرجُلُ: لم يَكُن ثَمَّةَ مدينةٌ في هذا المكانِ قَطُّ. وإنما كانَ هنـاكَ مرَّةً دَيرٌ، وقَد دُمِّرَ على أَيدِي فِئَةٍ من أهلِ القُطرِ الجنُوبيِّ».

وبعدَ قليلٍ لقيَ المسَافرُ، علَى طريقِ زَاآد نفسِها، رجُلاً ثالثًا وأشَارَ

مَرَّةً أُخرَى إلى الحَقلِ الفَسيحِ وقالَ: «أليسَ صَحِيحًا أنَّ هذا هو المكانُ الذي كانَ يقومُ فيه ديرٌ كبيرٌ مِن قَبلُ»؟

أجابَه الرجلُ: «لم يَكُنْ قَطُّ في هذا الجِوارِ دَيرٌ، ولكنَّ آباءَنا وأجدادَنا أخبَرُونا أنَّ شِهابًا[1] كَبيرًا وَقَعَ مَرّةً فوقَ هذا الحَقلِ».

وتابعَ المسافرُ سَيرَهُ، مُتَعَجِّبًا في سِرِّهِ. ثمَّ لَقيَ، وهو يَمشي، رجُلاً عَجُوزًا طَاعِنًا في السِنِّ، فحَيَّاهُ، وقال له: «لقيتُ أيها السَيِّدُ، على هذه الطريقِ ثلاثةَ رِجالٍ يُقيمُون في هذا الجِوارِ، وقَد سألتُ كلَّ واحِدٍ منهُم عن هذا الحَقلِ، وكلُّ واحدٍ مِنهُم نَفَى ما قالَهُ الآخرُ، ورَوَى لي حكايةً جَديدةً لم يَذكُرْهَا الآخرُ».

رفعَ الشيخُ العجوزُ رأسَه، وأجَابَ: «كلُّ واحدٍ مِن هؤلاءِ الرِجَالِ أخبَرَكَ في الحَقيقَةِ، يا صَاحبي، عمّا كان. ولكنْ قِلَّةٌ منّا هُمُ الذين يُقدِرُونَ على إضَافَةِ وَاقعٍ إلى وَاقِعٍ مُختلِفٍ، ويُؤَلِّفُون من ذلكَ حَقيقةً»[1].

---

(١) شهاب: نجم مضيء.

(١) العِبرة: المعرفة نسبيّة، ولا أحد يملكها. والزمن السرمديُّ لا يستطيع أن يحتويه أحد. كل رَجُلٍ يمثّل جزءًا من الحقيقة، وجماع أقوالهم قد تكون جلّ الحقيقة وليس كلها. وحدهم العباقرة والأنبياء يملكون الرؤيا البعيدة، والأفق الواسع للوصول إليها.

الحزام الذهبي

تلاقَى ذاتَ يَوم رجُلانِ كانا يَسيرانِ على الطَريقِ إلى «سَالاميس»[1]، مدينةِ الأعمِدَةِ، فتَرَافقَا، ووَصَلا عندَ مُنتصَفِ الأصِيل إلى نَهرٍ عَريضٍ، وليسَ مِن جِسرٍ يَربِطُ بينَ ضِفَّتيهِ، فكانَ علَيهما أن يَسبَحَا، أو يَسْلُكَا طِريقًا آخرَ لا يعرِفَانِهِ.

وقالَ واحِدُهما للآخر: «فَلْنَسْبَحْ؛ فالنهرُ ليسَ عَريضًا لدَرجَةٍ نَتَجَشَّمُ[2] بها مَشَقَّةَ السيرِ عَلى طريقٍ نَجهَلُهُ». وَألقَيا بنفسَيْهما في المَاءِ.

وما هيَ إلا فترةٌ قَصيرةٌ حتى أخذَ أحدُهمَا يَفقِدُ فَجأةً تَوازُنَهُ، ويَدفَعُه التيَّارُ بَعيدًا، وَهو لا يَملِكُ من أمرِهِ شَيئًا، وكانَ مِن قبلُ يعرِفُ الأنهارَ ومَسالِكَها، بينَما الآخرُ الذي لم يَسبَحْ قَطُّ مِن قبلُ، قَطَعَ النهرَ على خَطٍّ مُستقيمٍ، ووَقَفَ على الضِفَّةِ المُقابِلَةِ. ومُذْ بَصُرَ برفيقِهِ يُصارعُ التَيَّارَ، قَذَفَ بنفسِه ثانيةً في الماءِ وَجَرَّهُ سَالِمًا إلى الشَطِّ.

وقالَ الرجُلُ الذي جَرَفَهُ التيارُ: «أخبَرْتَني أنَّكَ لا تُحسِنُ

---

(١) سالاميس: مدينة أسطورية.

(٢) نتجشَّمُ: نتكلّف على مشقّة وتَعَبٍ ونَصبٍ.

السِباحَةَ، فكيفَ إذن قطَعْتَ النهرَ بمثلِ هذه الثِقة»؟

أجابَ الرجلُ: «أَتَرى يا صديقي إلى هـذا الحِـزَامِ الـذهبيِّ الـذي يُطَوِّقُني؟ إنَّهُ مَليءٌ بالنُقُودِ الذَهبيَّةِ التـي حَـصَلْتُ عَليهـا خـلالَ عَـامٍ كامِلٍ منَ العَملِ، في سَبيلِ زَوجتي وأَولادِي. إنها قيمـةُ هـذا الحِـزامِ الذَهبيِّ التي حَمَلَتْني عَبر النهر، إلى زَوجتي وأولادِي، وهـولاءِ كـانُوا فوقَ كَتِفي وأنا أسبَحُ».

وتابَعَ الرجُلانِ سَيرَهُما مَعًا نحوَ سَالاميس[1].

***

(١) العِبرة: العبور إلى شاطئ الأمان والسلام لا يكون إلا بالتسليم إلى قـوى ناموسـيّة تفـوق قـدرة الإنسان على التصور والتصميم.

التراب الأحمر

قالَتْ شـجرةٌ لرجُـلٍ: «إنَّ جُـذُوري تُوغِـلُ[1] عُمقًـا في الـترابِ الأَحمَرِ، وسَأعطِيكَ مِن ثَمَرِي».

وقالَ الرجلُ للشَجرةِ: «ما أشبَهَ الواحدَ مِنّا بالآخَرِ! إنَّ جُـذُوري عَميقةٌ أيضًا في التُرابِ الأحمَرِ، والترابُ الأحمَرُ يمنَحُكِ القوَّةَ لتَهَبِينـي مِن ثَمَرِكِ، وهو الذي يَعلِّمُني أن أَتقبَّلَ منكِ مَعَ الامِتنَانِ»[2].

***

---

(١) توغل: أمعن، ذهب بعيدًا.

(٢) العِبرة: هي سُنَّةُ الوجود: الأَخذُ والعطاء وكلاهما واحد في ميزان الوجـود. فقـد يكـون الأخـذ وجهًا من وجوه العطاء.

البدر الكامل

طلعَ البدرُ كامِلاً، مجيدًا، عَلى المدينَةِ، ورَاحَتْ كلابُ تلكَ المدينـةِ جَميعُها، تَنبَحُ القَمَرَ.

إلا أنَّ هُناك كَلبًا وَاحِدًا لم يَنبَحْ، قالَ لِرِفَاقِهِ بصَوتٍ صَارِمٍ: «لـن تُوقِظُوا المُواتَ من سُباتِهِ[1]، ولن تُنزِلُوا القمرَ إلى الأرضِ بالنُباحِ».

وانقَطَـعَ حِينَئـذٍ جميـعُ الكـلابِ عَـنِ النُبـاحِ[2]، وسَـادَ صَـمتٌ رَاعِبٌ[3]. ولكنَّ الكلبَ الذي كَلَّمَ الجَمعَ، استمرَّ في نُباحِهِ مـن أجـلِ الصَمتِ، طوالَ الليلِ بأكمَلِهِ[4].

***

(١) المُوات: ما لا حياة فيه؛ سباته: نومه.

(٢) النُباح: صوت الكلب.

(٣) صمت راعب: صمت مخيف.

(٤) العِبرة: لا شيء يغيِّر من نظام الكون. فنباح الكلاب لم يُنزِل القمرَ إلى الأرض. ومهما فعل البشر فالناموس الكلي لا تتبدَّل قوانينه.

النبيُّ الناسِك

كان هُناك مرَّةً نَبيٌّ منقطعٌ للعِبَادةِ والنُسكِ، ولم يَكُن يَترُكُ صَومَعَتَهُ سِوى ثلاثِ مَرَّاتٍ في الشَهر، يذهَبُ خِلالَهَا إلى المدينةِ. يَعِظُ الناسَ في الأسوَاقِ ويَدعُوهُم إلى بَذْلِ العَوْنِ والمُشارَكَةِ في حَمْلِ الأَعبَاءِ[1]. وكانَ فَصيحًا بَليغًا، قادِرًا على الإِقناعِ، حتَّى طارَ صِيتُه في طُولِ البِلادِ وعَرضِها.

وذاتَ يَومٍ قَدِمَ إلى صَومَعَتِهِ ثلاثةُ رِجَالٍ، حَيَّاهُم وَأَكرَمَ وِفادَتَهُم ثُمَّ قالُوا له: «وَعظتَ الناسَ بالبَذلِ والمشَارَكَةِ. وكنتَ تَبغِي[2] تعليمَ أولئِكَ الذينَ لدَيهِم الكَثيرُ، أن يُقدِّمُوا لمَنْ ليسَ لدَيْهم سِوى القَليلِ، ونحنُ لا يُخامِرُنا[3] شَكٌّ في أنَّ شُهرتَكَ عادَتْ عليكَ بأموالٍ طَائِلَةٍ. فالآنَ، تعالَ وقَدِّمْ لنا من أموالِكَ، فإنَّا في حَاجَةٍ وفَاقَةٍ»[4].

أجابَ الناسكُ وقال: «ليسَ لديَّ أيها الأصدِقاءُ شيءٌ سِوى هذا

---

(١) الأعباء: مفردها العبء: الحِمْل، الثقل.

(٢) تبغي: تطلب، تريد، تنشد.

(٣) يخامرنا: يُداخِلُنا.

(٤) فاقة: حاجة، عَوَز.

الفِراشِ وهذا اللِحافِ وهذا الإبريقِ. خُذُوها إذا كنتُم تَرغَبُون فيهـا. أنا لا أملِكُ فِضَّةً ولا ذَهَبًا».

عندَ ذاكَ نَظَرُوا إليه بـازدِرَاءٍ[1]، وأدارُوا وُجُـوهَهـم عَنـه، ووَقَـفَ آخرُهُم عندَ البابِ لحَظَةً وقال: «أواه! أنتَ تَغشُّ! أنتَ تُخـادِعُ! إنـكَ لتُعلِّمُ وتَعِظُ أشياءَ لم تَبدَأْ بتَحقيقِها في نفسِك»![2]

***

(١) ازدراء: احتقار.

(٢) العِبرة: هذه القصة تكرار في بُعدها لقصة «الراهب والوحوش». وَلْنَذْكُرْ قول الشاعر:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيّ مثلَهُ
عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

الخمر المعتقة، العتيقة

كانَ غنيٌّ مَرَّةً كثيرَ الافتخارِ بقَبوِهِ والخَمرِ المُعتَّقَةِ فيه، وكانَ ثمة إبريقٌ احتَفَظَ به لمناسَبَةٍ لا يعرِفُها أحَدٌ غيرُه.

وزارَهُ حَاكِمُ الدَولَةِ، فأبدَى له امتِنانَهُ[1] عَلَى زِيارَتِه وقالَ لـه: «لا لن يَفرَغَ هذا الإبريقُ من أجلِ حَاكِمٍ تَفَضَّلَ بزِيَارةٍ».

وزارَهُ مُطرانُ الأبرَشِيَّةِ فقالَ لنفسِه: «لا، لن يَفرَغَ هـذا الإبريـقُ، فهوَ لن يعرِفَ قيمتَه، ولن يبلُغَ أريجُهُ[2] أَنفَهُ».

وجاءَ أميرُ المملَكَةِ وتَناوَلَ عشاءَهُ مَعَهُ، فقالَ الغنيُّ في سِرِّهِ: «إنَّها خَمرةٌ مَلَكِيَّةٌ، فلا يَصحُّ إهراقُها[3] من أجلِ أميرٍ».

وقالَ لنفسِه أَيضًا، حتَّى عندَما تزوَّجَ ابنُ أَخِيـهِ: «لا، لـيس لمثلِ هَؤلاءِ الضُيوفِ يَفرَغُ مثلُ ذلك الإبريقِ».

---

(١) امتنانه: عرفانه بالجميل، شكره.

(٢) أريجه: شذاه، طيبه.

(٣) إهراقها: سَكْبُها.

ومرَّتِ الأعوامُ تتلُوهَا الأعَوامُ، وماتَ عَجُوزًا، مُتَهافِتًا[1]، ودُفِـنَ في الترابِ كأيِّ بَذرةٍ أو بَلُّوطَةٍ.

وفي اليوم الذي دُفِنَ به، جِيءَ بالإبريقِ الذي لم يَسْخُ[2] به لأحَـدٍ، مَعَ غَيرِه مِن أباريقِ الخَمرِ، وتَقَاسَمَهُ فَلاَّحُـو الجِـوارِ، ومـا مِـن أحَـدٍ عَرَفَ عمرَه الكبير[3].

كان في نَظَرِ الذين شَرِبُوهُ خَمرًا كغَيرِها من الخُمُورِ[4].

***

(١) متهافتًا: طاعنًا في السنِّ.
(٢) لم يَسْخُ به: لم يَجُدْ به.
(٣) عمره الكبير: عمره الطويل.
(٤) العِبرة: لا يملكُ الإنسان في الحياة شيئًا، فالحياة هي التي تمتلكه. والأشياء مهـما غَلَـتْ وثَمُنَـتْ تعود بعدَ موتنا إلى أصحابها الأصليين فلا تَتَشَبَّثَنَّ بالدنيا فهي كالمرأة المغناج الملول تبدِّل عشَّاقها كما تبدِّل ثيابها.

القصيـدتان

تَلاقَى على طَرِيقِ أثينا[1]، قبلَ قُرونٍ مُتَطَاوِلَةٍ[2] شَاعِران، وكانَ كلُّ وَاحِدٍ منهُما مَسرُورًا بلقاءِ الآخَرِ.

سألَ أحـدُهما الثـاني قـائِلاً: «مـاذا نظَمْـتَ أخِـيرًا؟ وكيـفَ هـي قريحَتُك في هذهِ الأيَّامِ»؟

أجابَ الثاني بزَهْوٍ قَائِلاً: «لقد انتهَيْتُ إلى لحَظاتٍ خَلَتْ من نَظْـمِ أروَعِ قَـصيدةٍ قيلَـتْ حتَّـى الآنَ بالإغرِيقيَّـةِ. إنهـا مُناجَـاةٌ لـزوس[3] الأعلى».

ثم تناول من باطن جِلبَابِهِ[4] رَقًّا، وقالَ: هيَ هُنا. إنها مَعـي. وإنَّـهُ ليَسُرُّني أن أتلُوَهـا عليـكَ، تعـالَ وَلْـنَجْلِسْ في ظِـلِّ هاتيـكَ الـسَروةِ البَيضَاءِ».

---

(١) أثينا: عاصمة اليونان، ومهد الفكر والفلسفة وموطن الفلاسفة العظام.

(٢) متطاولة: طويلة.

(٣) زوس: كبير الآلهة عند قدامى اليونان.

(٤) جلباب: القميص أو الثوب الواسع.

وراحَ الشاعرُ يتلُو له قَصيدَتَهُ، وكانَتْ طَويلةً.

وقال له الشاعرُ الآخرُ برقَّةٍ ولُطفٍ: «إنَّها قصيدةٌ طويلةٌ. ستَظَلُّ حَيَّةً مَدَى العُصُور، وستُمَجِّدُكَ عليها الأجيالُ».

قالَ الأَوَّلُ بهُدوءٍ: «وماذا نظَمْتَ أنتَ آخِرَ ما نظَمْتَ»؟

أجابَ الثاني: «لم أنظُمْ سِوى القَليلِ، نظَمْتُ ثمانيةَ أبياتٍ فَقَط تذكارًا لصَبيٍّ كانَ يلعَبُ في الحَدِيقَةِ». وتَلا الأبياتَ.

قال الشاعرُ الأولُ: «ليسَ رَديئًا لدَرَجَةٍ كَبيرَةٍ»

وَمَضَيا...

واليومَ بعدَ أَلفَيْ سَنَةٍ، لا تزالُ الأبياتُ الثمانيةُ التي نظمَها الشاعرُ الثاني تدُورُ على كُلِّ لسانٍ، ويُرَدِّدُها الناسُ بإعجابٍ وإعزازٍ.

أمّا القصيدةُ الطويلةُ، فإنها وإن تناقَلَتْها الأجيالُ من بعدُ في المكتباتِ وحُجُراتِ البَاحِثِينَ والدَارِسِينَ، وكانَ الناسُ يَذكُرُونها، لا تلقَى مَنْ يُحِبُّها، ولا مَنْ يَتلُوها[1].

(١) العِبرة: الخلود في الفن منبعُهُ الإنسان.

الليـدي روث

وَقَفَ مَرَّةً ثلاثةُ رِجَالٍ يَتَأَمَّلُونَ مِن بَعيدٍ بَيتًـا أبـيضَ اللـونِ يَقُـومُ وَحدَهُ فوقَ رابيَةٍ خَضرَاءَ، فقالَ أحدُهم: «ذلـكَ هُـو بيـتُ الليـدي[1] رُوث، إنها سَاحِرَةٌ عَجُوز».

وقالَ الثـاني: «أنـتَ مُخطِـئٌ، الليـدي رُوث امـرأةٌ جَميلـةٌ تعِـيشُ مُنقَطِعَةً هُناك إلى أحلامِها».

وقالَ الثالثُ: «كلاكُـما عـلى خَطـإٍ، الليـدي رُوث صـاحبةُ هَـذهِ الأرضِ الفَسيحَةِ، وَهي تمتصُّ دَمَ العبيدِ الذين يَعمَلُونَ فِيها».

ومَضَوْا يتجَادَلُون حَول الليدي روث.

وحينَ بَلَغُوا مُفتَرَقَ طُـرُقٍ لَقُـوا رَجُـلاً طاعِنًـا في الـسِنِّ، فَـسَأَلَهُ أحدُهم قائلاً: «هل لكَ أن تُخبِرنَا ما شأنُ الليدي روث التـي تُقِـيمُ في ذلكَ البيتِ الأبيضِ، فوقَ الرَابِيَةِ»؟

رَفَعَ الشيخُ رأسَه، وابتَسَم سَاخِرًا مِنهم، وقـال: «أنـا في التِـسعينَ

(١) الليدي: لقب شرف عند الإنكليز.

من سِنِيَّ، وإني لأَتَذَكَّرُ الليدي رُوث مُذْ كُنتُ صَبِيًّا صَغِيرًا، غيرَ أنَّ الليدي روث مَاتَتْ منذُ ثمانِينَ عَامًا، والبيتُ الآنَ خَاوٍ تنعَبُ[1] فيه البُومُ، والناسُ يقُولُون أحيانًا: إنَّهُ مَسكُونٌ»[2].

***

(١) خاوٍ: خالٍ، فارغ؛ تنعب: صوت البُوم.

(٢) العِبرة: كُلٌّ ينظر إلى الحقيقة بالطريقة التي تناسبه، وتغذي خياله، وتترجم توقَه الداخلي. ولعلَّ الجواب على لسان الشيخ إنما هو دعوة إلى الحكمة والتعقُّل والنظر إلى الأمور بالعمق والرويَّة.

الفأرة والهر

لقيَ شاعرٌ ذاتَ مَساءٍ فَلاّحًا، وكانَ الشاعرُ جَافيًا[1]، والفلاَّحُ خَجُولاً، ومع ذلك دارَ بينَهما الحَديث.

قال الفلاّحُ: «دَعْني أَقُصُّ عليكَ قِصَّةً قَصيرَةً سَمِعْتُها أخيرًا، وَقَعَتْ فأرةٌ في فَخٍّ، وفِيما كانَتْ تَأكُلُ جُبنَةَ الفَخِّ سَعيدةً بالعُثُورِ عَليها، وَقَفَ بجانِبها هِرٌّ. ارتجفَتِ الفأرةُ لأوَّلِ وَهلَةٍ، ولكنَّها كانَتْ تعلَمُ أنها في أمانٍ داخِلَ الفَخِّ».

ثم قالَ الهِرُّ: «لقدَ أكلتِ آخِرَ وَجبَةٍ يا صَدِيقتي».

أجابَتِ الفأرةُ: «إنَّ لي حَياةً واحِدَةً وإذَنْ سَأَمُوتُ مِيتَةً وَاحِدَةً. ولكنْ، ما شَأْنُك أنتَ؟ لقد خُبِّرتُ أنَّ لَكَ تِسعَ حَيَواتٍ. ألا يَعني ذلكَ أنَّه سيكونُ عَليكَ أن تموتَ تِسعَ مِيتَاتٍ»؟

ونظرَ الفَلاَّحُ إلى الشَاعِرِ وقَال: «أليسَتْ هذهِ قِصَّةً غَريبَةً»؟

لم يُجِبْهُ الشَاعِرُ، ولكنَّه مَشَى بَعيدًا عَنه قَائِلاً في سِرِّه: «إنَّ لنا على

---

(١) جافيًا: فظًّا، غليظًا، غير ألوفٍ.

وَجهِ التأكِيدِ تِسعَ حَيَوَاتٍ، تِسعَ حَيَوَات على وَجْه التَأكِيدِ، وعَلينـا أن نَموُتَ تِسعَ مَرَّاتٍ. تسعَ مرَّات عَلينا أن نَموُتَ. ربما كانَ من الأفضَلِ أن لا يكونَ لنا سِوى حَياةٍ، أطبَقَ عَليها فَخٌّ، حَيـاةِ فَـلاّحٍ مَـعَ قِطعَـةِ جُبنٍ لآخِـرِ وَجْبَـةٍ. ألـسنَا مَـعَ ذلـكَ أنـسباءَ الـسِبَاعِ في الـصَحَارَى وَالأدغَالِ»[1]؟

***

(١) العِبرة: نجد في هذه الحكاية فكرة التقمص التي يؤمن بها جبران، كما نجد نقد جبران للواقع البشري الذي لا يستجيب لرغبات الشاعر فيبقى هذا الأخير غريبًا في وحدته يفضِّل مساكنة الوحوش والسباع على مساكنه البشر.

اللعنـــــة

قالَ لي مرَّةً بَحَّارٌ عَجُوز: «لقَد مَضَى على ذلكَ البَحَّارِ الذي خَطَفَ ابنَتي وهرَبَ بها ثَلاثُونَ عَامًا. ورُحتُ أَلعَنُهما في قَلبي، إذ كُنتُ لا أُحبُّ في هذا العالَمِ أحَدًا، سِوى ابنَتي.

ولم يَكَدْ يَمضِي زَمنٌ غَيرُ طَويلٍ عَلَى ذلكَ، حتَّى غاصَ البحَّارُ بِمَركَبِهِ إلى قَاعِ البَحرِ، وخَسِرْتُه. وخَسِرْتُ مَعَه ابنَتي الحَبيبةَ.

والآنَ انظُرْ فيَّ إلى قاتِلِ شَابٍّ وفَتَاة. إنَّها لَعنَتي التي قَضَتْ عليهما، وإني لأرجُو مغفرةَ الله وأنا في الطريقِ الآنَ إلى القَبر».

هذا ما قالَهُ العَجُوزُ، ولكنَّ لهجتَه كانَتْ تَنِمُّ عن زَهوٍ وافتِخَار، ويبدُو أنَّه لا يزالُ فَخُورًا بقُوَّةِ لَعنَتِهِ[1].

***

(١) العِبرة: أن تقول الحقيقة ونجاهرَ بها. أمرٌ لا مفرَّ للإنسان منه، مهما كانت مُرَّة وجارحة.

الرمانات

كان لرجُلٍ مَرَّةً عَدَدٌ وَافِرٌ مَنْ أشجارِ الرُمَّان في بُستانِهِ. وكـانَ في أكثرَ مِن خَرِيفٍ يَضَعُ رُمَّانَه علَى أطباقٍ فِضِّيَّةٍ خارِجَ مَسكِنِهِ، ويَضَعُ على الأطباقِ عَلاماتٍ يكتبُها بيـدِه: «خُذْ واحِدَةً لقـاءَ لا شيءَ. أهلاً بكَ».

غيرَ أنَّ الناسَ كانُوا يَمُرُّونَ بالأطبَاقِ، وما مِن أَحَدٍ يأخُذُ شيئًا مِن الثِمار.

عندَ ذاكَ فكَّرَ الرَجُلُ في نفسِه، حتَّى إذا أقبَلَ الخَريفُ التالي لم يَضَعْ رُمَّانًا على أطباقٍ فِضيَّةٍ خارجَ منزله، ولكنَّه أبرَزَ العلامةَ الآتيةَ وكتبَها بحُروفٍ كبيرةٍ: «لدَيْنا هنا أفضلُ رُمَّانٍ تُنتِجُهُ الأرضُ، ولكنَّنا نَبيعهُ بثَمَنٍ أغلَى من أثمانِ سَائِرِ الرمَّانِ».

وتدفَّقَ النـاسُ عَليه بعدَ ذلكَ من رِجَالِ الجيرةِ ونِسائِها يَشترُونَ[1].

---

(١) العِبرة: الغِش والخداع يرافقان الحضارة. كل شيء له ثمن. والسخيف في أمر هذه الحضارة إقبال الناس على ما عُرِض بثمن غالٍ، ولو كان تافهًا.

الله والآلهة العديدة

جَلَسَ سَفسَطائِي[1] في مَدينةِ كيلافيس، على دَرَجِ المعبدِ، وراحَ يَدعُو الناسَ إلى الآلهةِ العَديدة، والناسُ يقُولُون في قُلُوبهم: «إنَّا لَنَعرِفُ كُلَّ ذلكَ. ألا تعيشُ هذهِ الآلهةُ مَعَنا وتتبَعُنا أينَما ذَهَبْنَا»؟

ولم يَمْضِ على ذلكَ زَمَنٌ طَوِيلٌ، حَتَّى وَقَفَ رجُلٌ آخرُ في سَاحَةِ المدينَةِ يَخطُبَ الناسَ ويقُولُ لهم: «ليسَ هناكَ إلهٌ» وقد فَرِحَ كَثيرٌ مِمَّنْ سَمِعُوهُ بهذهِ البشائِرِ، إذ كُانوا في جَزَعٍ مِنَ الآلهة.

وذاتَ يوم أقبلَ رجلٌ قَويُّ العارِضَةِ[2]، بليغُ الحجَّةِ، وقالَ: «ليس هناكَ سِوى إلهٍ وَاحِدٍ». وجَزِعَ الناسُ في قُلُوبِهم، وخَافُوا حُكمَ إلهٍ وَاحِدٍ، أكثرَ مما كَانُوا يَخْشونَ حُكمَ آلهةٍ عَدِيدَةٍ.

وجاءَ في الموسِمِ نَفسِهِ رَجُلٌ آخرُ وقالَ للناسِ: «هنالك ثلاثَةُ آلهةٍ تُقِيمُ فوقَ الرِيحِ كأنَّها وَاحِدٌ، ولهم أُمٌّ حَانِيَةٌ[3]، وَاسِعَةُ الصَدرِ، تَقُومُ

---

(١) سفسطائي: نسبة إلى السَفسَطة. وهي جدل لا نهاية له غايتُه إسكاتُ الخصم.

(٢) قويّ العارضة: قويّ البديهة.

(٣) أمٌّ حانية: أمٌّ حنون.

مَقَامَ رَفيقةٍ لهم وأُختٍ في آنٍ واحِدٍ».

عندَ ذاكَ سُرِّيَ[1] عن الجَميع، إذ قَالُوا في سِرِّهِم: «ثلاثةُ آلهةٍ في واحِد، يَقتَضِي أن يَختَلِفُوا على عُيُوبِنا. وإلى ذلك، فإنَّ أُمَّهُم ذاتَ القلبِ الحَنونِ، لابُدَّ أن تقفَ بِجَانِبِنَا وتُدَافِعَ عن نِقَاطِ ضُعفِنَا».

ولا يزالُ حتَّى اليومِ في مدينةِ كيلافيس تلك، أولئكَ الذين يَتَجادَلُون ويَتَنَازَعُونَ حَولَ الآلهةِ الثلاثةِ في واحِدٍ، وأُمٍّ حَنُونٍ للآلهةِ[2].

***

(١) سُرِّي عن الجميع: خُفِّف عنهم الهمُّ.

(٢) العِبرة: كلٌّ يتمنَّى أن يكون الدين وفقًا لمشتهياته. وما من بشريٍّ قادر على رؤية الحقيقة المطلقة. المدنية زائفة والبشر ساعون وراء مصالحهم وشهواتهم.

تلك التي كانت صمّاء

كان مَرَّةً لرَجُلٍ غَنِـيٍّ زَوجـةٌ شَـابَّةٌ ولكنَّهـا كانَـتْ صَـمَّاءَ صَـمَمَ الحَجَرِ.

وذاتَ صَباحٍ، بينَما كانَ الغنيُّ وزوجُه يَتَنَـاوَلانِ فُطُورَهُمـا، بَـدأتْ هذهِ الكلامَ وقالَـت: «زُرتُ الـسوقَ أمـسِ، ورأيـتُ فِـيما رأيـتُ مِـن مَعرُوضَـاتِهِ، رِدَاءً حَريريًّـا صُـنْعَ دِمـشقَ، وَأَبـرَادًا[1] هِنديَّـةً، وعُقُـودًا فارِسيَّةً، وأساوِرَ يمانيَّة، وبدَا أنَّ القَوافِلَ اقتَصَرَتْ على هذهِ الأشـياءِ في كُلِّ ما جلَبَتْ إلى المدينةِ. والآنَ انظُرْ إليّ، وأنا بهذهِ الأطمارِ[2] البَاليةِ، أنـا زَوجَةُ الثَرِيِّ المعروفِ. أريدُ منكَ بعضَ هذهِ الأشياءِ الجَميلَةِ».

قال الزوجُ، وهو ما يَزَالُ يَحتَسِي قهوةَ الصَباحِ:

«عَزيزتي، ليسَ هناكَ ما يُبَرِّرُ عَدَمَ نُزُولِكِ إلى السُوقِ وَابتيـاعِ كـلِّ ما يَشُوقُكِ، ويَرتَاحُ إلى نَيلِهِ فُؤادُكِ»[3].

---

(١) أبراد: مفرده بُرد، وهو ثوب مخطَّط يُلتَحف به.

(٢) الأطمار: مفرده طِمر وهو الثوب البالي.

(٣) ابتياع: شراء؛ يشوقك: يُعجبك؛ نيله: الحصول عليه.

وكانَ مِن الزوجةِ الصَّمَّاءِ أنْ قَالَتْ: «لا، أبَدًا تقـولُ: لا، لا، هـل قُدِّرَ عليّ أن أظهرَ في الأَسْمَالِ[1] بين أَصـدِقَائِنا وصَـدِيقَاتِنا ليخجـلَ بي أَهلي، ويُخجِّلَ الناسُ ثراءَكَ»؟

قال الزوجُ: «لم أَقُلْ: لا يُمكِنُكِ أن تَذهبي إلى السُوقِ، وتَبتَـاعِي أجمَلَ الحِلَى والزِينَاتِ التي وَرَدَتْ إلى هَذه المدينةِ».

وأساءَتِ الزوجةُ فَهْـمَ كـلامِ زَوجِهـا للمَـرَّةِ الثَانيـةِ. وأجابَـتْ: «أنتَ أشحُّ الأغنياءِ جَميعِهم. إنَّكَ لتَأبى عَليَّ كُلَّ ما هو جَمالٌ وأناقَـةٌ، بينَما يطوفُ نساءُ جِيلي حَدائِقَ المَدينةِ رَافِلاتٍ في أبدَعِ الحُلَـلِ القَـشيبَةِ أغلاها»[2].

واسـتَخرَطَتْ في البُكـاءِ، وفـيمَا كانَـتْ دُمُوعُهـا تَتَهـاوَى عـلى نحرِها[3]، صاحَتْ للمَرَّةِ: «دَومًا تقولُ: لا، لا، كُلَّما رَغِبْتُ في حِليةٍ أو رِداءٍ».

وهنا اضطرَبَ الزوجُ ووَقَـفَ، وتنـاوَلَ مـن خَزِينَتِـهِ حَفنـةً مـن

---

(1) الأسمال: جمل سمل وهو الثوب البالي.

(2) أَشحُّ الأغنياءِ: أكثر الأغنياء بخلاً؛ تأبى: ترفض؛ رافلات: يَجرُرن أذيـال أثـوابهنّ متبخـترات؛ الحلل القشيبة: الثياب الجديدة.

(3) نحرها: عنقها.

النُقُودِ الذَهبيَّةِ، ووَضَعَها أمامَها، قائِلاً بصَوْتٍ رَقيقٍ نَاعِم: «اذهَبي إلى السُوق يا عَزيزتي وَاشتَرِي كُلَّ ما تُريدِينَ».

ومنذُ ذلكَ اليوم، أخذَتِ الزوجةُ الشَابَّةُ الصَمَّاءُ تَظهَرُ أمامَ زَوجِها بِدُرَّةٍ من الدَمعِ في عَينَيها كُلَّما رَغِبَتْ في الحُصُولِ على شَيء، وهوَ يتناوَلُ من جَانِبِهِ صَامِتًا، حَفنةً من الذَهَبِ، ويُلقي بها في حُضنِها.

ثمّ حَدَثَ أن وَقَعَتِ المرأةُ الشَابّةُ في هَوَى شَابٍّ من عَادَتِهِ أن يَقُومَ برَحلاتٍ طَويلَةٍ، وكُلَّما سَافَرَ في رِحلَةٍ، جَلَسَتْ في مُخدَعِها تَبكي. وكان زَوجُها عندَما يجِدُها على تلكَ الحَالِ من البُكاء، يقُول في سِرِّه: «لابُدَّ من أن تكُون ثَمَّةَ قافِلَةٌ جَديدةٌ قد وَصَلَتْ. وبعضُ الحِليِّ[1] والحُلَلِ النادِرَةِ قد عُرِضَتْ في السُوق».

وعندَ ذاكَ يتناوَلُ حَفنةً من الذَهبِ ويُلقي بها إليها...»[2].

***

(١) الحِليّ: ما يُتَزَيَّنُ به من الحجارة الكريمة.

(٢) العِبرة: فقدان التفاهم بين الزوجين يؤدي إلى عَيْشٍ كُلٍّ في عالمه دون الشعور بإحساس الآخر. كما نجد في هذه القصة تفاهة الإنسان الذي لا يرى نفسه إلا في الثياب، ولا يسكته إلا المال؛ كما نرى مأساة الآخر الذي ينطوي على نفسه يتآكله الألم ويلجأ إلى المال لإسكات الضجيج من حوله.

المســـألة

تَلاقى فَيلسُوفانِ، قبلَ نَحوٍ من ألفِ سَنةٍ، فوقَ مُنَحدَرٍ مِن لُبنانَ، فقالَ أحدُهُما للآخَرِ: إلى أينَ أنتَ ذاهبٌ»؟

أجابَ الآخرُ: «أنا أبحثُ عن عَينِ الصِّبَا التي أعرِفُ أنها تَنبَعُ وَسَطَ هذهِ الرَّوابي وقد عثرتُ على كِتاباتٍ تُنبئُ[1] أنَّ تلكَ العينَ تَتَألَّقُ تَألُّقَ الزهرةِ مَعَ الشَمسِ. وأنتَ عَمَّ تبحثُ»؟

أجابَ الأولُ: «أنا أبحثُ عن سِرِّ الموتِ...»

وأدرَكَ حِينَذَاكَ كُلٌّ من الفيلسوفَيْنِ أنَّ الآخرَ يَنقُصُه الشيءُ الكثيرُ مِنَ العِلمِ، على سَعَةِ مَعرِفَتِهِ، ورَاحَا يَتَنَازَعَانِ[2]، ويَتَّهِمُ كُلٌّ مِنهما الآخرَ بالعَماوَةِ الروحية.

وفيمَا كانَ الفَيلسُوفانِ يَصخَبَانِ[3] صَخْبَ الرِيح، مَرَّ بهما غَرِيبٌ كانَ يَحسَبُهُ أهلُ قَريَتِهِ سَاذِجًا، مِسْكِينًا لا يُدرِكُ شَيئًا، ومُذْ سَمِعَ

(١) تُنبئ: تُخبر.

(٢) يتنازعان: يتجادلان.

(٣) يصخبان: يرسلان ضجة صاخبة كالريح.

الجِدالَ الصَاخِبَ الذي يَرتفعُ من جَانِبِ الرجُلَيْنِ، وَقَفَ بُرهَةً يُصغِي إلى حِجَّةِ كُلٍّ مِنهُما.

ثم اقتربَ منهُما وقالَ: «يبدُو أنَّكُما يـا صَـاحِبَيَّ، تَنتَمِيَـان مَعًـا إلى مَدرسـةٍ فَلسفيَّةٍ وَاحِـدَةٍ، فـأنتُما تتَحـدَّثانِ عـن شيءٍ واحـدٍ، ولكـنْ بكَلِماتٍ مُختَلِفَةٍ. إنَّ أحَدَكُما يبحثُ عن عَينِ الصِّبا، والآخرَ يَبحثُ عن سِرِّ الموتِ، وهُمَا في الحَقيقةِ شيءٌ واحِدٌ، وهذا الشيءُ نفسُه يُقيمُ فـيكُما مَعًا».

وابتعَدَ الغَريبُ عَنهما، وَهو يقُولُ: «وَداعًا أيُّهـا الحَكـيمان»! وفـيما كانَ يُديرُ ظهرَه مُنصَرِفًا سُمِعَ وهو يَضحَكُ ضِحكةً هَادِئَةً.

ونظرَ الفيلسوفانِ كُلٌّ مِنهُما للآخرِ في صَمتٍ لحظـةً، ثـم ضَـحِكَا أيضًا، وقال أحدُهما لزميله:

«حَسَنٌ، ألا يَحْسُنُ بنا الآنَ أن نمشيَ ونَبحثَ مَعًا»؟[1]

---

(١) العِبرة: ... وخذوا الحكمة من أفواه المجانين. وجواب هذا الشاب البسيط الساذج فيه تكمُن كل العبرة والحكمة. يبقى ما يفتش عنه الفيلسوفان؛ إنما يفتِّشان عن الحقيقة. هذا في الصِبا وذاك في الموت. وفي هذه الحقيقة تكمن المعرفة... فتبيَّن أن عين الصِبا وسر الموت هما في الحقيقـة شيء واحد يقيم في كل إنسان. إنها وَحدة الوجود.

الصَّوْلجـان

قَالَ ملكٌ لزَوجِهِ: «لستِ يا سَيِّدتي مَلِكَةً حقًا! أنتِ جِدٌّ عَادِيَّةٍ ومُبتَذَلَةٍ وغيرُ لائقةٍ لأن تكوني رَفيقةَ حَياتي».

قالتِ الزوجةُ: «أنتَ تَحسَبُ نفسَك مَلِكًا، وما أنتَ في الحَقيقةِ سِوى رَجْعِ صَدّى مِسكينٍ لِمَنْ قبلَكَ».

وأغاظَتْ هذهِ الكلماتُ المَلِكَ، فتناولَ صَولجانَهُ بيدِهِ، وضَرَبَ الملكةَ على جَبينِها بالقَبضَةِ[1] الذهبيَّةِ منه.

ودخلَ رئيسُ الخَدَمِ في تلكَ اللَحظةِ وصَاحَ: "مَاذا؟ مَاذا يا صَاحِبَ الجلالَةِ؟ هذا الصَولجَانُ صَنعَهُ أكبرُ فنَّانٍ في البلادِ، وَاحَسْرَتَاه[2]! سَوفَ يَأتي يَومٌ تُنسى به أنتَ والملكةُ، وهذا الصَولجانُ يُحفَظُ كرَائِعَةٍ فنِّيةٍ، مِن جِيلٍ لجيلٍ، والآنَ وقد أسَلْتَ الدَمَ به من رَأسِ صَاحبةِ الجلالةِ، فإنه سيُصبحُ أوفرَ اعتبارًا وأكثرَ تَذَكُّرًا»[3].

---

(١) القبضة: المقصود «المقبض». وهذه اللفظة أصوب لسياق الكلام.

(٢) واحسرتاه: للندبة.

(٣) العِبرة: الملوك كالعاديين من الناس يتنازعون ويتجادلون ويتباغضون... ومع ذلك يبقى تملُّق الخدم لهم ضروريًا حفظًا للمكانة والمصلحة. أما الصولجان فهو الفن الذي يدوم عبر الزمان والمكان وقد يتخذ من الأشخاص منطلقًا لعلاقة بارزة يُعرف بها.

الطــريق

كانـتِ امـرأةٌ تعـيشُ في أعـالي الرُّبَـى مَـعَ ابنِهـا، وكـانَ بِكرَهـا ووَحِيدَها، الذي تُنفِـقُ عليـه كُـلَّ مـا في قلبِهـا وحيَاتِهـا مـن عَطـفٍ وحَنانٍ.

وماتَ الولدُ بحُمَّى فاجَأَتْهُ، والطبيـبُ واقـفٌ بجانِبِـهِ. وسَـحَقَ الأسى[١] قلبَ الأُمِّ وراحَتْ تَصرُخُ وتُوَلوِلَ، وتُخاطِبُ الطبيبَ قائلـةً: «قُلْ لي، قُلْ لي، ما الذي أسكنَ حَركتَه، وأسكَتَ غِناءَهُ»؟

قالَ الطبيبُ: «إنها الحُمَّى».

قالتِ الأُمُّ: «وما هي هَذِهِ الحُمَّى»؟

أجابَ الطبيبُ: «لا أستطيعُ شَرحَها. إنها شَيءٌ مُتَنَـاهٍ في الـصِّغَرِ[٢] يزُورُ الجِسمَ، ولا نَقدِرُ على رُؤيتِهِ بالعينِ المجرَّدَةِ».

ثم تركَها الطبيبُ، وراحَت تُكرِّرُ ما قالَ الطبيـب لنفـسِها: «شيءٌ

---

(١) الأسى: الحزن الشديد.
(٢) مُتناهٍ في الصِغَر: صغير إلى حدٍّ لا يُرى معه.

مُتناهٍ في الصِغَرِ، لا نَقدِرُ على رُؤيتِهِ بالعينِ المُجَرَّدةِ».

وجاءَ الكاهنُ في المساءِ يُعزِّيها، فراحَتْ تَبكـي بـين يَدَيْـهِ وتُعْـوِلُ قائلةً: «لماذا فقَدْتُ وَلدي، وَلدي الوَحيدَ، وَلدي البِكرَ»؟

أجابَ الكاهنُ: «إنها يا ابنتي مَشيئةُ الله».

قالتِ المَرأةُ: «ما هُو الله؟ وأين هُو الله؟ أريـدُ أن أُشـاهِدَهُ لأمـزِّقَ صَـدري أمـامَهُ، وَأنـزِفَ دَمَ قَلبـي عـلى قَدَمَيْهِ، قُـل لي أيـنَ أسـتطيعُ أن أَجِدَهُ»؟

قالَ الكاهِنُ: «اللهُ رَحْبٌ[1] لا نهايةَ لرَحَابَتِهِ، ولا سبيلَ إلى رُؤيتِـهِ بِالعَينِ البَشَرِيَّةِ المُجَرَّدةِ».

صَرخَتِ المرأةُ عندَ ذاك: «إن الشيءَ الذي لا نِهايةَ لِـصِغرِهِ أهلَـكَ وَلَدِي من خِلال مَشيئَةِ الذي لا نِهايَةَ لكِبَره! ونَحنُ؟ مـا نحـنُ إذن؟ ما نحنُ»؟

وأقبلَتْ أُمُّ المرأةِ في تلكَ اللحظةِ وَوَلَجَتِ[2] الغُرفةَ ومعهـا كَفَـنٌ[3]

---

(١) رَحبٌ: واسع.

(٢) وَلَجَتْ: دخلت.

(٣) الكفن: الثوب الذي يُكفَّن به الميت.

الصَبيِّ وكانَتْ قد سَمِعَتْ كلماتِ الكـاهِنِ، وصُراخَ ابنتِهـا، ورَمَـتْ بالكَفَنِ إلى الأرضِ، وأخذَتْ يَدَ ابنتِها بيدِها، وقالَتْ: «نحنُ يا ابنَتـي الشـيءُ الـذي لا نِهايَةَ لصِغَرِهِ، ولا نِهايَةَ لِكِبَرِهِ، معًـا. نحـنُ الطريـقُ بينَ الاثنين»[1].

***

(١) العِبرة: في الأجوبة الثلاثة موضوعات الحكاية. في الجواب الأول الذي أطلقه الطبيـب: الحمـى «الوجود»؛ في الجواب الثاني الـذي أطلقـه الكـاهن: الله، في الجـواب الثالـث عـلى لـسان الأم: الإنسان. إنها نظرة حلولية يثبت من خلالها وحدة الوجود. وقد أتـت الحكمـة هنـا أيـضًا عـلى لسان الشيوخ (الأم).

الحوت والفراشة

وجَدَ رجلٌ وَامرأةٌ نفسَيْهما ذاتَ مساءٍ، مَعًا في عَرَبَةِ مُسَافِرِينَ، وكانَا قَدِ التَقَيَا مِنْ قَبلُ...

كانَ الرجلُ شَاعرًا، وَفيما هُو جالسٌ بجانِبِ المرأةِ، قَصَدَ إلى تَسلِيَتِها بِقصَصٍ ابتدَعَ[1] بعضَها، وسَمِعَ بعضَها الآخَرَ.

ولكنَّ المرأةَ غَفَتْ بينَما كانَ يَسرُدُ عَليها قِصَصَه. وعَثَرَتِ[2] العربةُ فجأةً وأفاقَتِ المرأةُ، وقالت: «أنا مُعجَبةٌ بتَفسيرِكَ لِقصَّةِ يُونُس والحُوت[3]».

قال الشاعرُ: «غيرَ أنني كنتُ أقُصُّ عليكِ يا سَيدتي قِصَّةً أنا وَضَعْتُها حَولَ فراشةٍ ووَردَةٍ بيضاءَ، فكيفَ انتقلَتْ واحِدَتُها إلى الأُخرَى»[4]؟

---

(١) ابتدع: اختلق. ابتكر.
(٢) عثرت: زلّت، سقطت، وقعت..
(٣) يونس في القرآن الكريم، ويونان في الكتاب المقدس. رُوي أنه طرح في البحر وابتلعه حوت قذفه إلى البر بعد ثلاثة أيام.
(٤) العِبرة: يقول د. إميل كبا معلِّقًا: أيكون من مرامي جبران أننا في داخل الحوت وسوف نُبصق عند شاطئ آخر لحياة جديدة؟

السِّلْم يُعدي

قالَ غُصنٌ مُزهِرٌ لجارِه: «هذا يَومٌ تافِهٌ، أجوفُ». فأجابهُ الغُصنُ الآخرُ: «إنَّهُ في الحقيقةِ أجوفُ، تافِهٌ».

وتعلَّقَ في تلكَ اللحظةِ عُصفورٌ على أَحَدِ الغُصنَيْنِ، وجاءَ عُصفورٌ آخرُ ووقَفَ بجانِبِهِ.

وتَرنَّمَ أحدُ العُصفورَيْنِ وقالَ: «هَجَرَتْني رَفيقتي».

وصاحَ العُصفورُ الآخرُ: «ورَفيقتي أيضًا ذهبَتْ ولن تَعُودَ، فأيُّ شيءٍ يَهُمُّني مِن ذلكَ»؟

وراحَ العُصفورانِ يتلاحَيانِ[1] ويَتَوَجَّهُ كُلٌّ مِنهُما بالتَوبيخ إلى الآخَرِ، ثمَّ ما لبِثَا أن تَنازَعا[2]، وأثارَا ضَجَّةً كَبيرةً في الجوِّ.

وَانقَضَّ فجأةً من السَماءِ عُصفورانِ آخرانِ، وَارتَمَيَا بهُدُوءٍ إلى جانِبِ زَميلَيْهِما المُتَشاجِرَيْنِ[3]، وسَادَ الهُدوءُ والسِلمُ.

---

(١) يتلاحيان: يشتم واحدهما الآخر.

(٢) تنازعا: تناقشا بحدَّةٍ.

(٣) المتشاجرَين: المتنازعين.

ثم طارَ الأربعةُ مَعًا زَوْجَيْنِ، زَوْجَيْنِ!

وقال الغصنُ الأولُ لجارهِ: «أحدَثَ قُدومُ العـصافيرِ ضَوضَـاءَ[1] كبيرةً».

وأجابَهُ الغُصنُ الآخَرُ: «سَمِّ ذلك ما شِئتَ. الآنَ سِـلمٌ وهُـدُوء. إذا كانَتِ الطبقةُ العُليا مـن الجـوِّ في سَـلام. فإنَّـهُ يبـدُو لي أنَّ أولئِـكَ الذين يُقيمُونَ في الطبقةِ الـدُنيا، يَحْيَـوْنِ في سَـلامٍ أيـضًا، أتريـدُ أن لا تتمايلَ في الرِيحِ أكثرَ مما تَفعلُ، كي تَظَلَّ بَعيدًا عَنِّي»؟

قال الغصنُ الآخرُ: «إيه! رُبَّما أفعلُ مـا تَـشَاءُ مـن أجـلِ الـسِلمِ، لحظةً وينتَهي الربيعُ».

ثم مالَ مع الريحِ بقُوَّةٍ ليَتعَانَقَا...»[2].

***

(١) ضوضاء: ضجة وجلبة غير مفهومة.

(٢) العِبرة: عالم الطيور وعالم البشر. متماثلان، متشابهان، فيهما العواطف عينها، والانفعالات ذاتها. والأغـصان بـدورها تتـذمَّر كالبـشر... حـالات رومنـسية ميـزت الأدب الجـبراني وآداب الرومنسيين بشكل عامّ. ثم: ما الذي دفع العصفورين إلى الهدوء؟ من همـا هـذان اللـذان حطَّـا بقربهما؟ قد يكونان الحبيبَيْن اللذين أبكيا العاشقَيْن. سبحان الله!

الظـــل

قالَ العُشبُ في يَوم من أيَّامِ حزيرانَ (يونيو)، لِظِلِّ دَوحَةٍ[1] كَبيرةٍ: «أنتَ لا تَني تَتَنَقَّلُ يَمنةً ويَسرةً أغلبَ الأحيانِ، إنَّكَ لتُزعِجُني عمَّا أنا فيه مِن هُدُوءٍ ورَاحَةِ بَالٍ».

أجابَ الظِلُّ قائِلاً: «لستُ أنا الذي يتنقَّلُ! انظُرْ إلى السَماءِ، إلى الأعَالي، هنالكَ شَجَرةٌ تَتَقَلَّبُ في الريحِ شَرقًا وغَربًا، بين الشَمس والأرضِ».

وتطلَّعَ العُشبُ إلى العَلاءِ، وشاهَدَ الدوحةَ لأولِ مَرَّةٍ، وقالَ في سِرِّهِ: «ها، إنَّ هنالك عُشبًا أكبرَ مِني بكَثيرٍ»!

وران[2] عليه الصمت...[3].

***

(١) دوحة: شجرة عظيمة مُتَّسعة.

(٢) ران عليه: غَلَبَهُ.

(٣) العِبرة: كلُّ حقيقةٍ تُرى بعَين مَنْ ينظر إليها، وتُفهم بحسب قدرته على الفَهْم والتأويل والتفسير. والحقيقة النسبيَّة فكرة تكررت كثيرًا عند جبران في هذا الكتاب.

سبعــون

قال الشاعرُ الشابُّ للأميرةِ: «أُنا أحِبُّكِ.» أجابَتِ الأميرةُ: «وأنا أيضًا أُحِبُّكَ يا وَلدي».

ردَّ الشابُّ: «ولكني لستُ ولدَكِ. أنا رَجُلٌ وإني لأُحِبُّكِ».

قالت: «أنا أُمُّ البنينَ والبناتِ، وهؤلاءِ هُم آباءٌ وأُمّهاتٌ للبنينِ مِن بَعدِهم والبناتِ، وإن أحدَ أولادِ أولادي أكبرُ منكَ سِنًا».

وقال الشاعرُ الشابُّ: «ولكني أُحبُّكِ».

ولم يمضِ على هذا الحِوارِ زمنٌ طويلٌ حتَّى ماتَتِ الأميرة، ولكنَّها في اللحظةِ التي تَلَقَّتْ بها الأرضُ آخرَ أنفاسِها، قالت في سِرِّها: «يا حَبيبي! يا وَلِدي الحَبيبَ، يا شاعِري الشابَّ. رُبَّما كانَ لنا أن نَلتَقي بَعدُ مَرَّةً ثَانيةً. وَلكنِّي لن أكونَ عِندَئذٍ في السَبعينِ[1]».

***

---

(١) العِبرة: تأكيد لفكرةِ التقمُّص العزيزة على قلب جبران. ستعود الأشواق والعواطف لتحيا من جديد في صورة جديدة (انظر رماد الأجيال والنار الخالدة ـ عرائس المروج).

العثور على الله

كانَ رجلانِ يَمشيانِ مَرَّة في الوَادي، وأشارَ أحدُهما بإصبَعِه ناحيةَ الجبلِ، وقالَ: «هَل تَرى تلكَ الصومَعَةَ؟ هُناكَ يُقيمُ رَجلٌ طَلَّقَ الدُنيا منذُ زمنٍ طَويلٍ، إنَّهُ لا يَبحَثُ عن شيءٍ، ولا يريدُ شيئًا سِوى الله، على أديمِ[1] هذهِ الأرضِ».

قال الرجلُ الآخرُ: «إنَّهُ لن يَجِدَ الله حتَّى يَهجُرَ صَومعتَه، وعُزلتَه، ونُسكَه، ويَعودَ إلى العالَمِ، يشارِكُنا في أَفراحِنا وَأتراحِنا، ويَرقُصُ مع الرَاقصِينَ في ولائِمِ الأعراسِ، ويَبكي مع الباكِينَ حَولَ أجداثِ[2] المَوْتى».

واقتَنَعَ الرجلُ في سَريرتِهِ[3] بصحَّةِ هذا الكَلامِ، ولكنَّه أجابَ- على الرُغمِ منِ اقتِناعِهِ: «أنا أوافِقُ على كلِّ مات تقولُ، غيرَ أني أعتقِدُ أنَّ الناسِكَ إنسانٌ طيِّبٌ فَيخدُمَ بعُزلتِهِ أكثرَ مما يَفْعَلُ هؤلاءِ الرجالُ بطِيبتِهم الظاهِرَةِ»[4].

---

(١) أديم الأرض: ما ظهر منها.

(٢) أجداث: قبور. مفردها جَدَث.

(٣) سريرته: سِرّه.

(٤) العِبرة: معرفة الإنسان طريق إلى معرفة الله. ولكنّ جبران بدا في آخر الطّرفة متأرجحًا بين الرغبة في الانخراط في المجتمع وبين التنسّك بعيدًا عن صخب المجتمع.

النهـــــر

التقَى جَدولانِ صَغيرانِ في وادِي قَاديـشا[1] حيـثُ يَتـدفَّقُ النهـرُ العظيمُ، وراحَ كُلٌّ منهُما يتحَدَّثُ إلى الآخرِ.

قال أحدُ الجـدولَيْنِ: «كيـفَ أتيـتَ يا صَـديقي؟ وكيـفَ كانَـتْ طريقُكَ»؟

أجابَ الآخرُ: «كانَت طَريقي أكثـرَ الطُـرقِ عراقيـلَ ووُعـورَةً[2]، فقد كُسِرَ دُولابُ المِطَحَنَةِ، والمُزارِعُ الذي اعتادَ قِيـادَتي مِـن القنـاةِ إلى زُرُوعِهِ، قضَى نَحْبَـه[3]. وكـان عَـليَّ أن أُكـافِحَ، وأتـسرَّب مَـع قـذارَةِ أولئِكَ الذين لا يعمَلُون شَـيئًا، إلا أن يَخبِزُوا كَـسَلَهُم في الـشَمس[4]. ولكنْ، قُل لي كيفَ كانَتْ طريقُكَ أيُّها الصَديقُ»؟

أجـابَ الجـدولُ الآخـرُ، وقـالَ: «كانَـتْ طَريقـي تَختلـفُ عـن

---

(١) وادي قاديشا: إنه الوادي المقدّس. في لُبنان الشمالي. اشتهر بنسّاكه. وكان ملجأ الموارنـة في أيـام الاضطهادات.

(٢) عراقيل: الدواهي. وعراقيل الأمور: صِعَابُها؛ وعورة: صعوبة.

(٣) قضى نحبه: مات. توفّاه الله.

(٤) يخبزون كسلهم في الشمس: تعبير رمزي للتدليل على عدم إقدامهم على أي عمل.

طَريقِك: لقد نزلتُ من أَعالي الرُّبَى، وَسَطَ الأزهارِ العاطِرَةِ الناضِرَةِ، وأشجارِ الصَفصافِ المُتَهَدِّلةِ، وكانَ الرِجالُ والنِساءُ يرشُفُون[1] مِني بأكوابٍ فِضيَّةٍ، والأطفالُ الصغارُ يَغمُسُونَ على حَفافيّ أقدامَهم الورَدِيَّةَ في مِياهي، وكانَتْ ضَحِكاتُ البِشرِ والإيناس[2] ترتفعُ مُوسيقيَّةً في الفَضاءِ مِن حَولي، وكانت هناك أغانٍ عَذبةٌ تملأُ الجوَّ فَرَحًا وَأَلَقًا، يا لها مِن مأساةٍ أن لا تكونَ طريقُكَ هكَذا سَعيدَةً»!

وفي تلك اللحظةِ، تكلَّم النهرُ بصَوتٍ عالٍ وقال: «تعالَ، تعالَ، إنّنا ذاهبُونَ إلى البَحر، تعالَ، تعالَ، ولا تَقُلْ بَعدُ شَيئًا، كُنِ الآنَ مَعي. نحنُ ذَاهبَانَ إلى البَحر، تعالَ إليّ، تعالَ إليّ، فإنك تَنْسى إذ تَلِجُني كُلَّ جَولاتِك التَائهة، حزينةً كانت أم سَارَّةً، تعالَ وادخُل، ادخُل، فأنا وأنتَ سنَنْسى جميعَ طُرُقِنا عندَما نَبلُغُ قلبَ أَبِينا البحرِ[3]».

***

(١) يرشفون مني: يشربون من مياهي رشفاتٍ أي جرعات متتالية.

(٢) الإيناس: الأنس والبهجة.

(٣) العِبرة: البحر هو الله الذي يذوب فيه كل شيء وكل الأشياء تنصهر فيه. إنه الحقيقة الكبرى التي تتساوى أمامها كل الحقائق الصغيرة والثانوية.

الصيادون

التقىَ السُرورُ والحُزنُ، في يومٍ من أيَّامِ نـوّار[1]، بجانـبِ إحـدَى البُحيراتِ، فتبَادَلا التحيَّةَ، وجَلسَا عـلى مَقرُبَـةٍ مَـن الميـاهِ المُطمئنَّـةِ، يتطارَحَان الأحادِيثَ...

تحدَّثَ السُرور عَنِ الجَـمَالِ الـذي يَغمُـرُ الأرضَ، وعَـنِ الرَوعـةِ اليوميّةِ التي تُفعِمُ الحيـاةَ في الغَابَـةِ، وبـينَ الهِـضَابِ، والأغـاني التـي تُسمَعُ في الفَجْرِ والأصيلِ.

وتكلَّمَ الحُزن، ووافَقَ على كلِّ ما قالَهُ الـسُرورُ، لأن الحُـزنَ كـانَ يُدرِكُ سِحرَ الساعةِ والجمالَ المنبّعِثَ فيها، والحُزنُ بليغٌ حـين يخُـوضُ في حَديث نَوَّار وَسَطَ الحُقولِ وفَوق الهِضابِ.

وتحدَّثَ الحُزنُ والسُرورُ طَويلاً، وكانَ الوِفاقُ بيـنَهما تَامًـا حـولَ جَميعِ الأشياءِ التي يَعرِفَانِها.

ثم مَرَّ بهما صَيَّادان على الضِفَّةِ الأُخـرَى مِـنَ البُحـيرةِ. وفـيما هُـما

(١) نوّار: الشديد النَور. وهو نعتٌ لشهر «أيّار (مايو)» لكثرة النَّورِ فيه، أي الزهر الأبيض.

ينظُرانِ إليهما عَبْرَ الماءِ، قالَ أحدُهما: «إني لأَعجَبُ: مَـنْ عَـسَى هـذانِ الشَخصانِ أن يَكُونا»؟ وقـال الآخـرُ: «قلـتَ: اثنـان؟ أنـا لا أرَى إلا وَاحِدًا»!

قال الصيادُ الأولُ: «ولكِنْ هناكَ، اثنانِ». ورَدّ الثاني قائلاً: «ليسَ هناك إلا شـخصٌ واحِـد أسـتطيعُ أن أَتبيَّنَـهُ، وانعكـاسُ صَـورتِهِ في البُحيرةِ واحِدٌ أيضًا».

ولكنَّ الرجلَ الثاني قال ثانيةً: «أرى واحِدًا بُمفرَدِهِ». وقال الآخرُ للمَرَّةِ الثانية أيضًا: «ولكني أرَى اثنينِ بوُضُوحٍ».

ولا يزالُ أحدُ الصَيّادَين يقولُ حتَّى اليومِ إنَّ الآخرَ رأى شَخـصًا مُضاعَفًا، بينَما الآخرُ يقول: «صَديقي أعمَى على نَحوٍ ما»[1].

***

---

(١) العِبرة: يقول د. إميل كبا معلِّقًا: كأنها حيرة جبران بين الحقيقة الظاهرة والحقيقة الكونيـة، بـين رؤية العين ورؤية الوجدان.

التائه الآخر

لقيتُ ذاتَ مرَّةٍ رجُلاً آخرَ يتسكَّعُ[1] على الطُرُقِ. وكانَ أيضًا على بَعضِ الجُنونِ. فراحُ يُكلِّمُني هكَذا: «أنا تائِهٌ، ويبدُو أغلبَ الأحيانِ أني أجوبُ الأرضَ[2] مع الأَقَّاقِينَ، ومُذْ كانَ رأسِي أبعدَ بسَبعينَ ذِراعًا عَنِ الأرضِ مِن رُؤُوسِهم، فإنَّهُ يُبدِعُ أفكارًا أسمَى وأكثرَ انطِلاقًا من أفكارِهم.

غير أني في الحَقيقةِ لا أسيرُ مَعَ الناس، بل فَوقَهم، وكُلُّ ما يستَطِيعُون أن يَرَوْهُ مِني، إنما هو آثارُ أقدامي في حُقُولهم المُنفتِحَةِ.

وكثيرًا ما سَمِعْتُهُم يَتَجادَلُون ويَتَعارَضُون حولَ شكلِ هاتيكَ الآثارِ لأقدَامي وحَجْمِها، إذ كانَ هنالكَ مَن يقولُ: إنها آثارُ تِنِّينٍ طافَ الأرضَ في الماضِي السَحيقِ، وآخرُون قالوا: لا، هذهِ هي الأماكنُ التي هَبطَت عليها النيازكُ[3] من أفلاكِ الكواكبِ القَصِيَّةِ.

---

(١) يتسكَّع: يسير دون وجهه محدَّدة.

(٢) أجوب الأرض: أتنقَّل فيها.

(٣) النيازك: مفرها نَيزَك. وهو قطعة من الكواكب انفصلت عنها، وهي محرقة.

ولكن أنتَ يا صديقي، تعرِفُ أتمَّ المعرفـةِ أنَّ هـذه ليـست شـيئًا سِوى آثارِ أقدامٍ لتائه...»[1].

***

(١) العِبرة: تساؤلات جبرانية يبرز من خلالها عجز البشر عن إدراك مراميه والحقيقة التي يمتلكها.

أسئلة

١) ما معنى دموع التمساح؟
٢) ما الفرق بين التائه في المقدمة والتائه الآخر؟
٣) قارن بين فصل «الملابس» في التائه وفصل «الثياب» في «النبي»؟
٤) كيف أقنعت القبرةُ النّسرَ بالتخلّي عن تعاليه عليها؟
٥) ما هي العبرة من حكاية النسر والقبرة على الصعيد الوطني؟
٦) هل الفتاة محقّة في نعتها الشاعر بالكذب (أغنية الحب)؟
٧) ماذا تستنتج من حوار الضبع والتمساح (دموع وضحكات)؟
٨) ما هي العبرة بالنسبة للفتاة في حكاية «في السوق»؟
٩) لماذا اتهمت أميرة شواكيس زوجها بأنه غير وفيٍّ لها؟
١٠) هل الأميرة الثانية مُحِقَّة؟ (الأميرتان)
١١) ما مغزى «وميض البرق»؟
١٢) هل صحيح أن من لم يتزوَّج لا يعرف حقيقة الحب؟ (الراهب والوحوش)
١٣) لخّص أسطورة «النبي والغلام» في بضعة سطور.
١٤) ما هو المغزى الشعري الذي أراده جبران في «اللؤلؤة»؟ وهل للأسطورة علاقة بحياته؟
١٥) ما رأيك في نظرة المرأة إلى الرجل ونظرة الرجل إلى المرأة (جسد وروح)؟

١٦) لماذا لم يستطع الشعب أن يستغني عن المَلِك؟ (الملك)
١٧) ما هي النظرة الفلسفية التي بثّها جبران في «على الرمل»؟
١٨) اشرح ما قصده جبران في «الهدايا الثلاث».
١٩) هل أنت من رأى الكاتب حين يقول: «المدنية وراءنا تتعقّبنا؟ وماذا تمثل المدنيّة في نظر جبران (السلم والحرب)؟
٢٠) هل ترى رأي جبران في «الراقصة»؟ علّل.
٢١) ما هو المغزى الاجتماعي الذي أراده جبران في «الملاكان الحارسان»؟
٢٢) هل أراد جبران تحقير رجل الروابي في «التمثال»؟
٢٣) ما أهميّة الأحلام بالنسبة إلى جبران انطلاقًا من الأحلام؟
٢٤) ما الفرق بين المجنون والتائه في هذا الكتاب؟
٢٥) كيف عبّر جبران عن نقمته على الكاهن والسياسيّ في «الضفادع»؟
٢٦) هل تجد علاقة بين قوانين الملك السبعة وبين ما جاء في الكتاب المقدس؟ (الشرائع والتشريع)
٢٧) لماذا شبّه جبران المرأة بالحياة والموت؟ (أمس واليوم وغدًا)
٢٨) ما مغزى حكاية الفيلسوف والإسكافي؟
٢٩) من هو على الحقّ؟ المجنون أم سكّان المدينة في نظرك؟ (بناة الجسور)؟
٣٠) فسّر الفكرة التي انطوى عليها «الحزام الذهبي».

٣١) ما مغزى البدر الكامل؟

٣٢) ما هي الحكمة التي أرادها جبران في «النبي الناسك»؟

٣٣) لخص حكاية الخمرة العتيقة وأبرز مغزاها؟

٣٤) هل ترى أن قيمة الشعر بكميته أم بجودته؟ (القصيدتان)

٣٥) كيف يشبّه الناس السباع في الصحاري؟ (الفأرة والهر)

٣٦) لماذا أقبل الناس على شراء «الرمانات»؟

٣٧) ما تفسير جبران للإلوهة في «الله والآلهة العديدة»؟

٣٨) ماذا قصد جبران من حكاية «تلك التي كانت صماء»؟

٣٩) ما هي نظرة جبران الفلسفية في «الطريق»؟

٤٠) فسّر معنى الظل في «الظل» وما هو الرمز الذي يعنيه جبران؟

٤١) هل أنت من رأى جبران بأن الناسك لا يجد ربّه إلاَّ إذا خالط الناس (العثور على الله)؟

٤٢) إلام يرمز النهر؟

٤٣) لماذا ظل أحد الصيادين يقول إن صديقه أعمى؟ (الصيّادان)

٤٤) ما هو الانطباع الذي تركه فيك هذا الكتاب؟

٤٥) ما هي الحكاية التي أثارت اهتمامك بالدرجة الأولى، ولماذا؟

***

الفهرس



٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش ...
زهراء مدينة نصر - الق...
ت : ٠١٢٣٨٨٨٩٣٠ - ...٣١٢٣٨
: almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com
عبلين - الجليل - فلسطين
جوال : ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٠٠٩٧٢)
٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦ (٠٠٩٧٢)
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٠٠٩٧٢)

